السُّـنونُ البهِيةُ في رِحلةِ الدِّيـارِ الأمريكيّة

(2011–2019)

مشاهدات ومراحلُ سعود غسّان البشر
في الولاياتِ المتحـدةَ الأمريكيّة

2026



سعود غسان البشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب...

الحمدُ لله ربِّ العالمين، حمدًا يليقُ بجلاله وعظيم سلطانه، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحبُّ ربُّنا ويرضى، له الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه تُرجعون. والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد؛

لا يُقدَّم هذا الكتاب بوصفه سيرةً ذاتية مكتملة، ولا باعتباره عملًا علميًا محكّمًا يهدف إلى بناء إطارٍ نظري أو اختبار فرضيات بحثية، وإنما يأتي بوصفه كتاب مشاهدات وتدوينٍ تحليلي لجزءٍ من رحلة دراسية ومعيشية امتدت في الولايات المتحدة الأمريكية خلال الفترة ما بين عامي ٢٠١١ و٢٠١٩. وهي سنوات طويلة بما يكفي لأن تترك أثرها في الذاكرة، وأن تتشكّل خلالها ملاحظات متعددة المستويات: تعليمية، واجتماعية، وثقافية، واقتصادية، وإنسانية، تداخل فيها ما هو أكاديمي بما هو يومي ومعيشي.

لقد تعمّدت منذ البداية أن يكون هذا العمل توثيقًا هادئًا وغير متكلّف لما عايشته خلال تلك السنوات، دون ادعاء التفرّد أو الاستثنائية. فما ورد في هذا الكتاب لا يُراد له أن يُقدَّم على أنه التجربة النموذجية، بل هو جزء من تجربة شخصية لطالب سعودي عاش في مدن أمريكية متعددة، وتنقّل بين جامعات مختلفة، واحتكّ بمجتمعات أكاديمية وثقافية متباينة. ومن هنا فإن ما سيقرأه القارئ هو انطباعات وملاحظات وتحليلات نابعة من المعايشة المباشرة، قابلة للاتفاق والاختلاف، ومفتوحة للتأمل والنقاش.

والهدف الرئيس من هذا الكتاب هو تدوين المشاهدات قبل أن تتلاشى تفاصيلها، وتسجيل بعض اللحظات والمواقف التي مررت بها خلال سنوات الدراسة، سواء داخل الحرم الجامعي أو خارجه، في قاعات الدرس، أو في السكن، أو في وسائل النقل، أو في الشارع الأمريكي اليومي. وقد رافق هذا التدوين قدر من التحليل لبعض المواقف التي رأيت أنها تحمل دلالات أوسع من كونها أحداثًا فردية، دون أن يتحوّل ذلك إلى خطابٍ تقويمي أو أحكامٍ مسبقة على مجتمعٍ كامل. ومع ذلك،

أُقرّ بأن جزءًا من محتوى هذا الكتاب قد يكون معروفًا اليوم لكثيرين، خصوصًا لمن عاشوا تجربة الابتعاث أو سكنوا في مدن أمريكية كبيرة، أو تابعوا النقاشات العامة حول الولايات المتحدة. فالحديث عن المتاحف، والاختلاف الطبقي، وتحديات الطلاب الدوليين، وملامح الحياة الجامعية، ومظاهر التنوع الثقافيكلها موضوعات تتكرر في أدبيات المبتعثين وفي أحاديثهم وكتاباتهم. لكنني أعتقد في المقابل أن قيمة هذا العمل الحقيقية ليست في حداثة كل معلومة بحد ذاتها، بل في تراكم التفاصيل الصغيرة، وتسلسلها الزمني، وارتباطها بسياق تاريخي محدد (٢٠١١-٢٠١٩)؛ أي بالحقبة التي شهدت اتساع الابتعاث السعودي، ثم تحولات سياسات الهجرة، وتبدلات اجتماعية وثقافية واقتصادية داخل الولايات المتحدة. ولهذا السبب تحديدًا، أعتقد أن هذا الكتاب بعد عقود من الآن بمشيئة الله سيؤدي وظيفة مختلفة تمامًا عمّا يؤديه اليوم. فربما لا يثير مضمونه في الزمن الراهن دهشة كبيرة لدى بعض القرّاء، لكنه في تقديري سيكون بعد خمسين سنة مرجعًا مهمًا من مراجع أدب الرحلة، لا لأنه يسرد أحداثًا خارقة، بل لأنه يوثّق العديد من التحولات التعليمية و الاجتماعية والاقتصادية.

ومن المهم التأكيد هنا أن هذا الكتاب ليس كتابًا علميًا بالمعنى الأكاديمي ، ولا يهدف إلى أن يحلّ محل الدراسات المحكمة أو المؤلفات المتخصصة. فمن يرغب في الاطلاع على التحليل العلمي المنهجي للتعليم والمجتمع الأمريكي، فسيجد أن مؤلف هذا الكتاب، سعود البشر، قد قدّم إسهامًا علميًا واسعًا في هذا المجال، ويُعد—بحسب ما هو موثّق—من أكثر المؤلفين العرب كتابةً عن الولايات المتحدة الأمريكية، خصوصًا في الجوانب التعليمية والاجتماعية. إذ تجاوز مجموع ما كُتب في هذا الشأن أكثر من نصف مليون كلمة، موزّعة على كتب علمية ودراسات تاريخية وبحوث محكّمة، من أبرزها:

- الطلاب السعوديون في جامعات الولايات المتحدة الأمريكية
- التاريخ التعليمي الأمريكي
- قضايا وقوانين في مسار التعليم الأمريكي
- قضايا معاصرة في التعليم الأمريكي
- إدارة المناطق التعليمية في الولايات المتحدة من منظور عربي (صدر له طبعتان)
- التعليم العالي في الولايات المتحدة: نظرة عامة

إضافة إلى عدد من الدراسات المنشورة في مجلات علمية محكّمة، من بينها:
آليات تمويل الجامعات الحكومية في المملكة العربية السعودية في ضوء الجامعات المماثِلة في الولايات المتحدة، وواقع التعليم العام في الولايات المتحدة الأمريكية، وتطور التعليم العام في الولايات المتحدة (١٦٢٨-١٩٨٣)، وتاريخ التعليم العالي في الولايات المتحدة منذ النشأة حتى ١٨٩٩، والرياضة الجامعية في الولايات المتحدة: الأثر الاقتصادي ودروس مستفادة للتطبيق في السعودية، وتحليل الفجوات لمصادر إيرادات الرياضة الجامعية بالجامعات السعودية والولايات المتحدة الأمريكية. وعليه، فإن هذا الكتاب لا ينافس تلك الأعمال، بل يكمّلها من زاوية مختلفة؛ زاوية الإنسان المبتعث، لا الباحث فقط.

ويضم هذا الكتاب مجموعة من المشاهدات التي تمثّل تحليلًا لبعض المواقف التي عايشها المؤلف، إلى جانب توثيقٍ مرحلي لمسار الدراسة والحياة في "بلد العم سام". وقد قُسّمت هذه المشاهدات إلى محاور متعددة، تبدأ من واشنطن العاصمة، مرورًا بالأقليات العربية والمسلمة، والحالة الاقتصادية والاجتماعية، والأمن، والعنصرية، والدين، والرياضة، وقضايا المرأة، والصحافة، والتنوّع الثقافي، والبنية التحتية، والطقس، والتسوّق الإلكتروني، والكبار في السن، والمدارس، والتواضع المؤسسي، والدراسات العليا، والتدريس النسائي، وصخب المدن الجامعية، والعمل الجزئي للطلاب، والولاء للمدرسة والجامعة، والجهل الجغرافي، وصولًا إلى الأزياء والمظهر العام. ثم ينتقل الكتاب إلى توثيق المراحل الدراسية المختلفة التي مرّ بها المؤلف في عدد من المدن والولايات الأمريكية.

ومن الخصائص التي في تقديري منحت هذه الرحلة بعدًا مختلفًا أنني كنت طالبًا أعزب طوال الجزء الأكبر من سنوات الابتعاث. وهو عامل قد لا يُلتفت إليه كثيرًا، لكنه كان مؤثرًا في شكل التجربة وحدّتها. فقد قلّل ذلك من الأعباء والمسؤوليات الاجتماعية اليومية، وأتاح لي وقتًا أوسع للحركة، والقراءة، والمشاركة في الأنشطة الجامعية، والاحتكاك بالمجتمع الأمريكي خارج إطار الجالية. وأعتقد أن

هـذا الأمـر منحنـي فرصًـا أكـبر للاختـلاط والتفاعـل والملاحظـة، وهـو مـا انعكـس عـلى طبيعـة المشـاهدات الـواردة في هـذا الكتـاب.
كـما تعمّـدت في هـذا العمـل عـدم إدراج صـور شـخصية أو أسـماء لمعظـم الطـلاب السـعوديين الذيـن التقيـت بهـم أو عايشـت بعـض تجاربهـم، إلا في حـالات نـادرة ومحـدودة للغايـة. ويعـود ذلـك إلى حـرصي عـلى احـترام الخصوصيـة الشـخصية، وإدراكي أن كثـيرًا مـن الأفـراد قـد لا يرغبـون في ظهـور أسـمائهم أو صورهـم في عمـل منشـور، سـواء لأسـباب اجتماعيـة أو مهنيـة أو شـخصية. فضـلًا عـن أن إدراج مثـل هـذه التفاصيـل قـد يفتـح بـاب الاعـتراض أو طلـب التعديـل في طبعـات لاحقـة، وهـو مـا قـد يُدخـل الكتـاب في دوّامـة لا تخـدم غايتـه الأساسـية. ومـن ثـمّ، فضّلـت أن يكـون التركيـز عـلى التجربـة والمشـهد والتحليـل، لا عـلى الأشـخاص بأعيانهـم.

كـما لا يفوتنـي في مقـام الشـكر أن أرفـع أسـمى عبـارات الامتنـان والتقديـر إلى والـديَّ الكريمـين حفظهـما اللهفهـما بعـد توفيـق اللـه عـز وجـل أصـلُ كلِّ نجـاح، وسـندُ كلِّ خطـوة، ودعاؤهـما كان زادًا لا ينفـد، وتوجيههـما كان نـورًا يهـدي، وصبرهـما كان مدرسـة في الثبـات. ومـا كان لهـذه الرحلـة أن تكتمـل في جوانبهـا العلميـة والإنسـانية لـولا مـا غرسـا في نفـسي مـن قيـمٍ راسـخة، ومـا بـذلاه مـن رعايـةٍ صادقـة واحتـواءٍ كريـم. ولا يمكـن أن تُختتـم هـذه المقدمـة دون التعبـير عـن الشـكر العميـق لحكومـة المملكـة العربيـة السـعودية، ولـ جامعـة الملـك سـعود، عـلى مـا قدّمتـاه مـن دعـمٍ سـخي لتحمّـل تكاليـف الابتعـاث. وهـي تكاليـف باهظـة يـدرك حجمهـا كل مـن درس في الخـارج، لا سـيما أن الطالـب الـدولي في الجامعـات الأمريكيـة العامـة يدفـع في كثـير مـن الأحيـان ثلاثـة أضعـاف مـا يدفعـه الطالـب المحـلي. وقـد كانـت دراسـتي في مرحلتـي الماجسـتير والدكتـوراه في جامعـات حكوميـة عامـة، وهـو مـا يجعـل هـذا الدعـم اسـتثمارًا حقيقيًـا في بنـاء الإنسـان والمعرفـة.

وفي النهايـة، فـإن هـذا الكتـاب لا يقـدّم إجابـات نهائيـة، ولا يدّعـي امتـلاك الحقيقـة الكاملـة، وإنمـا يفتـح نافـذة إضافيـة للقـارئ العـربي عـلى تجربـة دراسـية ومعيشـية كُتبـت بصـدق، وبقـدر مـن التحليـل، وبحـرصٍ عـلى التوثيـق. ولعـل قيمتـه القريبـة تتمثـل في مرافقـة القـارئ خـلال رحلـةٍ واقعيـة التفاصيـل، فيـما تكمـن قيمتـه البعيـدة كـما أظـن في كونـه وثيقـة مـن وثائـق أدب الرحلـة، يُعـاد اكتشـافها مسـتقبلًا حـين يصبـح "العـادي" الـذي نعيشـه اليـوم جـزءًا مـن التاريـخ.

سعود غسان البشر

٢٠٢٦/١/١

الرياض, المملكة العربية السعودية

المحتوى

ثانيا: مراحلي الدراسية في بلد العم سام

المشاهدة الأولى: واشنطن العاصمة.

المشاهدة الأولى: واشنطن العاصمة.

كنتُ طالبًا في الولايات المتحدة الأمريكية خلال المدة الممتدة من عام ٢٠١١ إلى عام ٢٠١٩ ولم تكن تلك السنوات مجرد مرحلة دراسية عابرة بقدر ما كانت تجربة حياتية مكتملة تشكّلت فيها الرؤية وتراكمت المشاهد وتبدلت خلالها كثير من القناعات ومن بين جميع المدن التي عرفتها في تلك الرحلة الطويلة بقيت واشنطن العاصمة الأقرب إلى نفسي بل مدينتي المفضلة بلا منازع ليس لأنها مركز القرار السياسي العالمي فحسب بل لأنها مدينة ذاكرة قبل أن تكون مدينة سلطة مدينة متاحف قبل أن تكون مدينة مكاتب. ما كان يجذبني إلى واشنطن تحديدًا هو كثافة المتاحف والمزارات التاريخية فيها ذلك الحضور الطاغي للتاريخ في الفضاء العام وهو أمر بدأ يلامسني أكثر بعد أن تجاوزت سن الخامسة والعشرين حين بدأ الميل إلى التاريخ والأمكنة التي تحمل ذاكرة الأمم يفرض نفسه بهدوء وربما كان هذا الشغف امتدادًا طبيعيًا لجذور بعيدة فأنا في نهاية الأمر من ذرية المؤرخ عثمان بن بشر مؤرخ نجد الأول رحمه الله وكأن التاريخ ينتقل أحيانًا عبر الأجيال دون وصية مكتوبة. لهذا السبب لم تكن زياراتي لواشنطن عابرة ولا سريعة بل كنت أحرص في كل مرة على التجوال الطويل بين متاحفها وقد زرتها جميعها تقريبًا وكان لافتًا أن الدخول إليها مجاني في رسالة ثقافية واضحة مفادها أن المعرفة والتاريخ حق عام لا امتياز نخبوي وخلال تلك الجولات شاهدت البيت الأبيض من الخارج وزرت مبنى الكابيتول ذلك المبنى المهيب المخصص لمجلسي الشيوخ والنواب والذي يمثل أحد أكثر رموز الدولة الأمريكية تأثيرًا ولم تقتصر علاقتي بالمدينة على بعدها التاريخي فقط بل امتدت إلى معالمها الحديثة مثل مول تايسون القريب من العاصمة والذي يعكس وجهًا آخر للحياة الأمريكية المعاصرة حيث الاستهلاك والترف والتنظيم.وكان آخر عهدي بواشنطن في عام ٢٠١٧ وكانت زيارة مختلفة في طابعها إذ زرت فيها متحف تاريخ الأمريكيين من السود وهو متحف لا يكتفي بعرض الوقائع بل يضع الزائر أمام سردية إنسانية عميقة عن الظلم والصمود والتحول ويجبره على إعادة التفكير في كثير من المسلمات المرتبطة بالتاريخ الأمريكي الحديث

غير أن علاقتي بواشنطن لم تبدأ بهذا النضج الثقافي، بل بدأت منذ أول لحظة وصولي إلى الولايات المتحدة. ففي يوم الجمعة ٣٠ سبتمبر ٢٠١١، كانت واشنطن بوابة دخولي الأولى إلى أمريكا. وصلت إلى مطار واشنطن، وهناك بدأت التجربة بوجهها الأصعب؛ إذ بقيت في غرف التفتيش قرابة خمس ساعات كاملة. كانت ساعات طويلة على طالب قادم للمرة الأولى، لكنها كانت اختبارًا مبكرًا للصبر انتهولله الحمدبخروجي بسلام. وعند خروجي وجدت مسؤولي الملحقية الثقافية السعودية بانتظار الطلاب السعوديين، وكان عددنا كبيرًا بشكل لافت، في فترة تُعد من أكثر الفترات التي شهدت تواجدًا كثيفًا للطلاب السعوديين في الجامعات الأمريكية، إضافة إلى كثرة المرافقين؛ إذ كانت الملحقية آنذاك تدعم دراستهم وتُعينهم. تم توجيهنا بعد ذلك إلى فندق الشيراتون في إحدى مقاطعات ولاية فيرجينيا القريبة من واشنطن، ضمن اتفاقية موحدة بين الملحقية وعدد من الفنادق، وبسعر ستين دولارًا لليلة، وهو سعر مناسب لمرحلة الوصول الأولى. وفي اليوم التاليالسبت والأحدتوجهت إلى زيارة المناطق السياحية في العاصمة واشنطن. وفي يوم الاثنين توجهنا إلى الملحقية الثقافية السعودية في مبناها الجديد بفيرجينيا، وكان الدكتور محمد العيسى يشغل منصب الملحق الثقافي آنذاك. وكانت الملحقية تضم عددًا كبيرًا من الموظفين، كثيرٌ منهم من الأمريكيين العرب، مما سهّل التواصل وخفف رهبة البدايات.وكان عمري آنذاك ٢٤ عامًا وفق التقويم الميلادي، وقرابة ٢٥ سنة وفق التقويم الهجري. وقبل هذه الرحلة كنت قد عملت معلم تربية خاصة لمدة عامين في مدينة الملك خالد العسكرية بالقرب من حفر الباطن، ثم أصبحت معيدًا في قسم الإدارة التربوية بجامعة الملك سعود. ولم أطل كثيرًا في عملي معيدًا؛ إذ بقيت نحو خمسة أشهر أُجهّز أوراقي للابتعاث إلى بلاد العم سام.

في تلك المرحلة كان الالتحاق بالبعثة يتم بمرونة كبيرة يصل الطالب على حسابه الخاص يرفع أوراقه ثم تصله الموافقة خلال ثلاثة أشهر أو أقل وخلال الأيام الستة التي قضيتها في واشنطن كنت أتردد باستمرار على الملحقية لاستكمال

أوراقـي وافتتـاح ملفـي والتقيـت بمشرفتـي الدراسـية وكانـت مشرفـة مرنـة وسريعـة الاسـتجابة وهـو مـا تـرك أثـرًا إيجابيًـا في بدايتـي الأكاديميـة كان التعامـل مـع الملحقيـة يتـم في معظمـه عـبر نظـام سـفير الإلكـتروني ولم أحتـج إلى الاتصـال الهاتفـي إلا نـادرًا وخـلال تلـك الأيـام اسـتخرجت رقـم جـوال مـن شركـة تي موبايـل رافقنـي طـوال سـنوات دراسـتي يبـدأ بمفتـاح واشـنطن ٢٠٢ وكأن المدينـة الأولى بقيـت ترافقنـي رقميًـا أينـما ذهبـت وكان رقـم هاتفـي هـو (٢٠٢٤٦٩١٣٧٧)

وفي بهـو فنـدق الشـيراتون كان المشـهد مكتظًـا بالطـلاب السـعوديين القادمـين حديثًـا وبالعـرب الذيـن يعرضـون خدماتهـم مـن توصيـل ومسـاعدة وبيـع مسـتلزمات بسـيطة وبنـاء عـلى توجيـه الملحقيـة ونصيحـة الزمـلاء فتحـت حسـابًا في بنـك أوف أمريـكا وكانـت الملحقيـة تُـودع المخصـص الشـهري الـذي يقـارب ألفًـا وثمانمائـة دولار بانتظـام كـما تـم تزويـدي بتأمـين صحـي ممتـاز بالتعـاون مـع شركـة أيتنـا. ورغـم إعجـابي الكبـير بواشـنطن إلا أننـي لاحظـت فيهـا كـما في غيرهـا مـن المـدن الأمريكيـة اختـلالًا طبقيًـا واضحًـا طبقـة تعيـش رفاهًـا بالغًـا في مقابـل طبقـة معدمـة تعـاني الفقـر والتهميـش وهـو مشـهد يتكـرر في الولايـات المتحـدة عمومًـا ويعكـس واقعًـا يمكـن القـول فيـه إن العدالـة الاجتماعيـة ليسـت متحققـة بالصـورة المثاليـة التـي تُسـوّق عـن الدولـة الأقـوى عالميًـا. ومـع ذلـك لم أتعـرض في أيامـي الأولى لمـا يُعـرف بالصدمـة الثقافيـة وربمـا يعـود ذلـك إلى اعتيـادي السـابق عـلى السـفر ولـله الحمـد والمنـه أو إلى الاسـتعداد النفـسي المسـبق رغـم أننـي كنـت هـذه المـرة وحيـدًا تمامًـا وأعتقـد أن تجربتـي السـابقة في العمـل بمدينـة الملـك خالـد العسـكرية القريبـة مـن حفـر الباطـن ومـا فيهـا مـن انضبـاط واعتـماد عـلى النفـس كان لهـا دور كبـير في سرعـة تكيفـي مـع الوضـع الجديـد. وهكـذا كانـت واشـنطن العاصمـة بالنسـبة لي مدينـة الوصـول الأول ومدينـة المتاحـف ومدينـة التاريـخ ومـرآة التناقضـات الاجتماعيـة لكنهـا قبـل كل شيء كانـت البدايـة الهادئـة لرحلـة طويلـة في الولايـات المتحـدة بـدأت فيهـا طالبًـا مـترددًا وانتهـت بذاكـرة مثقلـة بالمشـاهد والـدروس والمعـاني التـي لا تُنـسى

المشاهدة الثانية: الأقليات العربية والمسلمة في الولايات المتحدة.

المشاهدة الثانية: الأقليات العربية والمسلمة في الولايات المتحدة.

خلال سنوات دراستي في الولايات المتحدة الممتدة من عام ٢٠١١ إلى عام ٢٠١٩ كان حضور الأقليات العربية والمسلمة ملموسًا في معظم المدن التي عشت فيها أو مررت بها سواء كانت مدنًا جامعية صغيرة أو حواضر كبرى غير أن هذا الحضور لم يكن متجانسًا في شكله ولا في درجة اندماجه داخل المجتمع الأمريكي بل كان يتشكل وفق عوامل متعددة تتداخل فيها طبيعة المدينة وحجمها وتاريخ الهجرة والوضع الاقتصادي وطبيعة الجالية نفسها وهل هي جالية مستقرة منذ عقود أم تجمع طلابي مؤقت. في المدن الجامعية الصغيرة مثل بولمان كان الوجود الإسلامي محدودًا عددًا لكنه متماسكًا في بنيته وُجد مركز إسلامي واحد قديم نسبيًا لكنه كان يؤدي الدور الديني والاجتماعي المطلوب منه في حدود الإمكانات اللافت في هذه التجربة أن المسؤول عن المركز كان أستاذًا جامعيًا في جامعة واشنطن ستيت يجمع بين العمل الأكاديمي والخدمة المجتمعية ويتولى بنفسه أدوارًا متعددة من بينها توفير بعض اللحوم والأطعمة الحلال وبيعها للجالية في ظل غياب أي مطاعم أو بقالات عربية في المدينة هذا النموذج يعكس نمطًا شائعًا في المدن الصغيرة حيث تضطر المؤسسات الدينية إلى تجاوز دورها التعبدي لتسد فراغًا معيشيًا وثقافيًا لا تغطيه السوق المحلية

أما مدينة سبوكان التي كنا نقصدها باستمرار للترويح فقد بدت نموذجًا انتقاليًا بين المدينة الصغيرة والمدينة الكبيرة وُجدت فيها بقالة عربية واحدة يملكها أمريكي من أصول فلسطينية يساعده ابنه وكانت تمثل متنفسًا مهمًا للجالية العربية والمسلمة رغم أن ارتفاع الأسعار كان ملحوظًا وهو أمر يمكن تفسيره بضعف المنافسة وقلة البدائل في مثل هذه المدن وفي المقابل شهدت تلك الفترة نشاطًا لافتًا لمنصات إلكترونية يديرها طلاب سعوديون أو عرب تبيع التمور والقهوة والبهارات وتُشحن عبر البريد وقد كشفت هذه التجربة عن كفاءة عالية للنظام البريدي الأمريكي حيث كانت بعض الطلبات تصل خلال يوم واحد فقط وهو ما جعل الاعتماد على الشراء الإلكتروني خيارًا عمليًا وموثوقًا

وحين تنتقل إلى مدن أكبر مثل سياتل وكليفلاند يتغير المشهد جذريًا إذ تتعدد المطاعم والبقالات العربية وتظهر مدارس إسلامية ومراكز إسلامية متنوعة بعضها مخصص لطوائف إسلامية مختلفة مثل الشيعة وهذا التنوع لم يكن مفاجئًا بل نتيجة طبيعية لكبر حجم هذه المدن وقدم الهجرة العربية إليها وارتفاع الكثافة السكانية فيها فكلما كبرت المدينة زادت فرص التنوع المؤسسي واتسعت خيارات العيش الثقافي والديني . وفي مدينة تير هوت وهي مدينة صغيرة نسبيًا وُجد مركز إسلامي واحد يكفي احتياجات الجالية الأساسية مع توفر خيارات أفضل قليلًا في الأطعمة العربية مقارنة ببولمان ومع مرور الوقت وجدت نفسي أعتمد بشكل شبه كامل على الشراء عبر الإنترنت لتوفير احتياجاتي الغذائية العربية باستثناء اللحوم التي ظل الحصول عليها أكثر تعقيدًا وهو تحدٍ دائم يواجه المسلمين في المدن الصغيرة ويكشف حدود الاندماج السوقي للأقليات الدينية في مثل هذه البيئات.



احدى المساجد في مدينة سبوكين, واشنطن



المركز الإسلامي في مدينة بولمان, واشنطن



المركز الأسلامي في مدينة موسكو , ايداهو



المركز الإسلامي في مدينة تيرهوت , انديانا

ومن خلال المعايشة اليومية لاحظت أن غالبية العرب والمسلمين لا يميلون إلى الاختلاط بالمجتمع الأمريكي خاصة من فئة حديثي الهجرة وهو سلوك يمكن تفسيره بدافعين رئيسين أولهما الخوف على السلوكيات الفردية وثانيهما الرغبة في حماية الأبناء من بعض الأفكار التحررية الحادة السائدة في المجتمع الأمريكي هذا الخوف مفهوم في سياقه الثقافي والديني لكنه في الوقت ذاته يقود إلى عزلة اجتماعية تقلل من فرص التأثير الإيجابي وتبقي الجالية في موقع الدفاع لا المبادرة وتحد من قدرتها على تقديم صورة متوازنة عن ذاتها. و على خلاف هذا التوجه كنت أؤمن بأهمية الاختلاط الواعي بالمجتمع الأمريكي لا من باب الذوبان أو التفريط بالهوية بل من باب التأثير المتبادل وبناء الجسور فالأمريكيون في العموم اجتماعيون ومتقبلون للأجانب ومحبون للتعارف والاحتكاك اليومي يفتح مساحات للحوار والفهم المشترك أكثر مما يفتحها الانعزال والانغلاق وقد وجدت أن كثيرًا من الصور النمطية تتفكك تلقائيًا حين يعيش الناس التجربة الإنسانية المباشرة بعيدًا عن الخطاب الإعلامي

ومن أكثر الملاحظات التي لم تكن تروق لي داخل بعض الأوساط المسلمة وخصوصًا بين الرجال الإصرار على التميز الشكلي في اللباس داخل المراكز الإسلامية وخارجها حيث يرتدي بعضهم الملابس العربية التقليدية رغم أن أصولهم ليست عربية بل إفريقية أو هندية هذا السلوك في تقديري يبعث برسالة غير مقصودة مفادها أن تغيير اللباس جزء من التدين وبحكم اختلاطي الواسع بالمجتمع الأمريكي وسكني مع عائلات أمريكية ومشاركتي في الأندية الطلابية وجدت أن هذا الانطباع شائع لدى كثير من الأمريكيين ويؤدي في كثير من الحالات إلى تقليص فضولهم تجاه الإسلام بدلًا من توسيعه لأن الإسلام في جوهره دين عالمي يخاطب الإنسان أيًا كان ثقافته ولا ينحصر في زي أو مظهر أو قالب ثقافي محدد.كما لاحظت أن بعض المراكز الإسلامية كانت تشهد جدالات فكرية ومذهبية لا يفترض في رأيي أن تكون حاضرة في فضاءات يُفترض أن تؤدي دورًا جامعًا دعويًا واجتماعيًا وربما أسهم في ذلك وجود أفراد يحملون أفكار جماعات متشددة أو مؤدلجة هذه النقاشات وإن كانت متقطعة إلا أنها تترك أثرًا سلبيًا على صورة الجالية داخليًا وخارجيًا وتضعف دور المركز بوصفه مساحة احتواء لا صراع.

ومن المشاهد الاجتماعية اللافتة خلال تلك السنوات الانتشار الواسع لمقاهي الشيشة التي تحولت إلى ظاهرة رائجة بين طلاب الجامعات بل وفي المجتمع الأمريكي عمومًا وبطبيعة المجتمع الأمريكي المحب للتجديد والتجربة لاقت هذه المقاهي رواجًا كبيرًا وكان للعرب دور واضح في إدخالها ونشرها وهذه الظاهرة تكشف كيف يمكن لعنصر ثقافي بسيط أن ينتقل من هامش ثقافة مهاجرة إلى قلب الثقافة السائدة حين يجد قبولًا اجتماعيًا وفضولًا استهلاكيًا.
وخلال سنوات الإقامة زرت أكبر تجمعين للعرب في الولايات المتحدة الأول كان في أناهايم القريبة من لوس أنجلوس وهي منطقة يغلب عليها أبناء دول الشام تنتشر فيها المطاعم والمقاهي العربية وتُقام فيها فعاليات فنية وغنائية وقد مكثت فيها ليلتين عام ٢٠١٣ وزرت خلالها ديزني لاند ويغلب على العرب هناك أنهم من النصارى ولديهم صحف أسبوعية باللغة العربية تُوزع في المطاعم والبقالات وهو ما يعكس حضورًا ثقافيًا منظمًا ومندمجًا نسبيًا داخل المجتمع الأمريكي. أما التجمع الثاني فكان في ديربورن القريبة من ديترويت والتي زرتها عام ٢٠١٥ وهي منطقة تُعرف بكثافة الوجود العربي خاصة من اليمن ودول الشام وتتميز بكثرة المساجد حتى بات الأمريكيون يصفونها بأنها مدينة مسلمة ويعود أصل هذا التجمع إلى قرار اتخذه هنري فورد في النصف الأول من القرن العشرين باستقدام عمال من اليمن خصوصًا من المناطق الجنوبية للعمل في مصانع السيارات هربًا من الإضرابات العمالية المتكررة آنذاك وهو ما شكّل النواة التاريخية لهذا الوجود العربي المستقر. وفي ديربورن تتعدد خيارات المطاعم والمقاهي وتصدر صحف عربية متعددة كما افتُتح متحف العرب الأمريكيين ورغم أهميته الرمزية فإنه لا يزال في تقديري دون المستوى المأمول لاعتماده على جهود فردية أكثر من كونه مشروعًا مؤسسيًا متكاملًا قادرًا على تمثيل التاريخ العربي الأمريكي بعمق واتساع. وفي المحصلة تكشف هذه المشاهد أن الأقليات العربية والمسلمة في الولايات المتحدة حاضرة بقوة عددية وثقافية لكنها تعاني في كثير من الأحيان من إشكالية تقديم الذات والخوف من الاندماج والانشغال بالجدل الداخلي وبين العزلة المفرطة والاندماج الواعي تظل الفرصة قائمة لبناء حضور أكثر تأثيرًا يقدّم الإسلام بوصفه رسالة إنسانية عالمية لا هوية منغلقة ولا قالبًا ثقافيًا جامدًا بل تجربة أخلاقية قادرة على التفاعل الإيجابي مع المجتمع الأوسع دون فقدان جوهرها.

المشاهدة الثالثة: الحالة الاقتصادية في الولايات المتحدة.

المشاهدة الثالثة: الحالة الاقتصادية في الولايات المتحدة

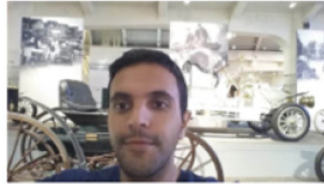
تُقدَّم الولايات المتحدة للعالم بوصفها أقوى اقتصاد في العصر الحديث وحين تقرأ الأرقام وتتابع المؤشرات يبدو الوصف منطقيًا فالناتج المحلي ضخم والشركات العملاقة تهيمن والدولار حاضر في كل زاوية من التجارة والابتكار يتدفق من الجامعات والمختبرات والأسواق لكنني كلما اقتربت من الحياة اليومية هناك ازداد يقيني بأن قوة الاقتصاد في أعلى الهرم لا تعني بالضرورة رخاء الناس في القاعدة وأن بريق المؤشرات الكلية قد يخفي في ظله تفاصيل قاسية لا تظهر في الجداول ولا تُروى في نشرات الأخبار فالقصة التي تعيشها في الشارع وفي المتجر وفي الحي وفي المدرسة تختلف كثيرًا عن قصة الاقتصاد كما تُحكى في المؤتمرات.
وخلال سنوات الإقامة كنت أرى الاقتصاد الأمريكي يعمل بكفاءة عالية لكنه يعمل أيضًا بمنطق شديد الصرامة لا يترك مساحة واسعة للطمأنينة فالمال موجود لكن الطريق إليه ليس سهلًا والثروة تتكدس في يد قلة بينما تظل فئات واسعة تركض خلف أساسيات الحياة لا خلف رفاهيتها وحين تسمع أحدهم يتحدث عن ثراء أمريكا تتذكر فورًا ذلك الأمريكي الذي يخرج من عمله الأول ليذهب إلى عمله الثاني وقد يضيف ثالثًا في عطلة الأسبوع لا طمعًا في الترف بل خوفًا من الفواتير والإيجار وتكاليف الحياة التي لا ترحم ومن هنا بدأ السؤال يأخذ شكلًا أكثر جدية في ذهني كيف يمكن لاقتصاد بهذا الحجم أن يترك كل هذا القلق في تفاصيل الناس وكيف يمكن لبلد يملك هذا القدر من القوة أن يجعل كثيرين من أبنائه يكتفون بالكفاف دون أن يشعروا بالأمان. ومن ثم تأتي الضرائب لتضيف طبقة أخرى من الشعور بثقل الحياة فالضرائب هناك ليست رقمًا هامشيًا يمر مرور الكرام بل واقعًا محسوسًا في الدخل والاستهلاك وفي كثير من الولايات تصبح جزءًا من مزاج الناس اليومي ومن مفرداتهم وهم يتهامسون حول خصومات الرواتب أو قيمة ما يدفعونه عند الشراء ومع كل ذلك يتضح أن الطبقة المتوسطة التي يفترض أن تكون منطقة الاستقرار في أي مجتمع تعيش حالة تآكل بطيء ومؤلم وكأنها تتراجع خطوة خطوة لتترك المجتمع بين طرفين طرف يملك كل شيء وطرف يكدح كي يحافظ على ما تبقى له
وما يلفت الانتباه في أمريكا أن الطبقية ليست خفية ولا تحتاج إلى عين خبيرة

لاكتشافها هي واضحة كوضوح الخرائط تراها في الأحياء قبل أن تراها في الكتب يكفي أن تنتقل من شارع إلى شارع لتعرف الفرق بين من يملك ومن يحاول أن يملك ومن لا يملك أصلًا تراه في شكل المنازل وفي نوعية السيارات وفي نظافة الأرصفة وفي كثافة الخدمات وفي المدارس التي تعكس بيئة الحي أكثر مما تعكس فلسفة الدولة وحين تزور حيًا ثريًا تشعر أن كل شيء صُمم كي يقول لك هنا يعيش من وصل ثم لا تلبث أن تمر على حي فقير فتجد أن المكان نفسه يشي بالتعب وأن الخدمات أقل وأن ملامح الناس تحمل أثر الكدح وأن دائرة الفقر لا تُكسر بسهولة. وفي قلب هذه الصورة تظهر معاناة السود وبعض الأقليات وبخاصة الهسبانك معاناة تمتد في جذورها وتتجدد في تفاصيلها لا تحتاج إلى خطابات طويلة لتثبت وجودها فالأجور أقل والوظائف غالبًا أقسى والفرص ليست متكافئة كما يُفترض أن تكون ورغم أن المجتمع يرفع شعار المساواة ويكرر مفردات الفرص إلا أن الحياة اليومية تفضح فجوة لا تزال قائمة وتُذكرك بأن التاريخ لا يختفي بمجرد أن تتغير القوانين وأن آثار التمييز حين تتراكم عبر أجيال تصبح جزءًا من الاقتصاد نفسه لا مجرد قضية اجتماعية (لمزيد من التفاصيل راجع كتابي إدارة المناطق التعليمية في الولايات المتحدة من منصور عربي - الفصل الثامن).

ومن المشاهد التي لا يمكن تجاهلها حين تقرأ الاقتصاد الأمريكي من الداخل انتشار العمالة المخالفة خصوصًا من الهسبانك في قطاعات بعينها كالزراعة والبناء والخدمات وهي عمالة تعمل غالبًا بأجور أقل بكثير من الأجور النظامية فيستفيد أصحاب الأعمال من انخفاض التكلفة وتستفيد بعض الأسواق من وفرة اليد العاملة لكن الثمن الاجتماعي والإنساني يكون باهظًا لأن هذه العمالة تعيش في منطقة رمادية بين الحاجة والخوف وبين العمل والقلق وبين الرغبة في الاستقرار واحتمال الترحيل وقد كان يُقال إن عدد المخالفين بالملايين وكان حضورهم في بعض المناطق محسوسًا في تفاصيل السوق والورش والمطاعم وأعمال الصيانة وكلما اقتربت من هذه الدوائر شعرت أن هناك اقتصادًا يعمل في الظل اقتصادًا لا يظهر في الخطاب الرسمي لكنه حاضر بقوة في الحركة اليومية. وفي فترة رئاسة دونالد ترامب الأولى تزايدت مشاعر الخوف لدى هذه الفئة بشكل لافت لأن الحديث عن الترحيل والمداهمات لم يكن مجرد نقاش سياسي بعيد بل تحول عند كثير من الأسر إلى قلق يومي يرافقهم في الطريق إلى العمل وفي الطريق إلى

المدرسة وأتذكر أنني شهدت أو سمعت عن حالات في ولاية إنديانا كان فيها غياب لافت لأبناء المخالفين من المدارس لأن بعض الأسر فضلت أن تبقي أبناءها في المنزل خوفًا من أي تتبع أو إجراء مفاجئ وحين ترى طفلًا يُحرم من يومه الدراسي لا لمرض ولا لإهمال بل لخوف من السياسة تدرك أن الاقتصاد ليس أرقامًا فقط بل هو مصائر وأعصاب وأيام تضيع من أعمار الناس

ومع ذلك فإن أمريكا لا تُختصر في جانب واحد فقد أتيحت لي زيارات لمصانع كبرى رأيت فيها وجهًا آخر للاقتصاد وجه الصناعة المنظمة وقوة الإنتاج التقني زرت مصنع بوينج للطائرات في سياتل وشاهدت بيئة عمل تشبه آلة ضخمة تعمل بانضباط وكانت الغلبة في العاملين للأمريكيين بما يعكس حضور الصناعة الوطنية الثقيلة حين تكون مرتبطة بأمن الدولة واقتصادها الكبير كما زرت مصنع فورد ورأيت التنوع التقليدي في الطبقة العاملة بين أمريكيين بيض وسود في صورة تُشبه تاريخ الصناعة الأمريكية الطويل وتُظهر كيف أن الاقتصاد الصناعي ما زال قائمًا بقواعده الصلبة وحضوره الاجتماعي.





صور لزيارتي مصنع بوينج للطائرات في سياتل و مصنع ومتحف هنري فورد القريب من ديترويت



ثـم ينتقـل المشـهد فجـأة إلى عـالم مختلـف تمامًـا حين تقـترب مـن الاقتصـاد التكنولوجي في ريدمونـد القريبـة مـن واشـنطن حيـث مايكروسـوفت هنـاك تشـعر أن العـالم تغـير وأن العمالـة تختلـف وأن اللغـة التـي يتحـدث بهـا الاقتصـاد ليسـت لغـة المصنـع بـل لغـة البرمجيـات والابتـكار وأن الحضـور الهنـدي واضـح وكثيـف ليـس فقـط داخـل الشركـة بـل في المحيـط كلـه في المطاعـم والخدمـات والأنشـطة المحيطـة حتـى إنـك تشـعر أحيانًـا أن بعـض الأحيـاء تتنفـس بـروح الجاليـة الهنديـة وتـزداد الفكـرة وضوحًـا حـين تـرى كثافـة المطاعـم الهنديـة في سـياتل ومـا حولهـا كأن الطعـام نفسـه صـار شـاهدًا اجتماعيًـا عـلى انتقـال الثقـل البـشري إلى هـذه الصناعـة الجديـدة. والهنـدي في هـذا السـياق ليـس حضـورًا عابـرًا بـل قصـة نجـاح متكـررة لأن هـذه الجاليـة تمتلـك تراكـمًا قويًـا في علـوم الحاسـب والهندسـة والتقنيـة وقـد أصبحـت ركيـزة في شركات التكنولوجيـا الكـبرى وحـين تسـمع عـن قيـادات تنفيذيـة في شركات عالميـة مـن أصـول هنديـة تفهـم أن الاقتصـاد الأمريـكي رغـم طبقيتـه مـا يـزال يجيـد صناعـة الجاذبيـة للكفـاءات وأنـه يمنـح مسـاحة للصعـود لمـن يملـك المهـارة والمعرفـة ولـو لم يكـن مـن أبنـاء البلـد لأن المنافسـة عنـده قاسـية لكنهـا قـد تكـون عادلـة في بعـض سـاحاتها حـين يتعلـق الأمـر بالكفـاءة الصرفـة. وفي النهايـة تـتركك هـذه المشـاهد أمـام حقيقـة مركبـة الاقتصـاد الأمريـكي قـوي جـدًا لكنـه ليـس كريمًـا بالـضرورة الاقتصـاد ضخـم لكنـه غـير متكافـئ الاقتصـاد يصنـع فرصًـا لكنـه لا يوزعهـا بالتسـاوي والنـاس داخلـه يعيشـون تناقضـات لا تنتهـي بـين مـن يعمـل وظيفتـين كي يضمـن الإيجـار وبـين أسرة تخـشى إرسـال طفلهـا إلى المدرسـة وبـين مهنـدس يقـود فريقًـا في شركـة تقنيـة عملاقـة وبـين عامـل في مصنـع يكـرر حركـة واحـدة آلاف المـرات ليحافـظ عـلى راتـب يضمـن الحـد الأدنى مـن الاسـتقرار وبـين هـذه الصـور كلهـا تتشـكل خلاصـة التجربـة أن القـوة الاقتصاديـة ليسـت مرادفًـا للسـعادة العامـة وأن رفـاه الـدول لا يُقـاس فقـط بحجـم اقتصادهـا بـل بقدرتهـا عـلى أن تجعـل النـاس يشـعرون بالأمـان والعدالـة والطمأنينـة في تفاصيـل حياتهـم الصغـيرة قبـل عناوينهـا الكبـيرة

المشاهدة الرابعة: الحالة الاجتماعية في الولايات المتحدة.

المشاهدة الرابعة: الحالة الاجتماعية في الولايات المتحدة

خلال سنوات الإقامة في الولايات المتحدة بدأت أكتشف أن المشهد الاجتماعي هناك لا يقل تعقيدًا عن المشهد الاقتصادي بل ربما كان أكثر حساسية لأنه يتسلل إلى تفاصيل الحياة اليومية دون أن يطرق الباب مباشرة ففي البداية تبدو الأمور عادية مجتمع منظم يحترم النظام ويقدّس الخصوصية ويمنح الفرد مساحة واسعة للاختيار لكن مع مرور الوقت والاحتكاك المباشر داخل الجامعة وخارجها تتكشف تحولات عميقة وتناقضات لا تظهر للسائح ولا للقارئ العابر بل لا يراها إلا من عاش التجربة يومًا بعد يوم وشارك الناس أحاديثهم وجلساتهم وتفاصيلهم الصغيرة. من أولى الملاحظات الاجتماعية التي بدأت تتضح تدريجيًا مسألة التفكك الأسري لم تكن صدمة مباشرة بقدر ما كانت اكتشافًا متراكمًا فكلما تعرفت على أستاذ أو زميل دراسة أو صديق جديد ظهرت قصة عائلية غير مكتملة أب يعرف بالاسم لكنه غائب عن الحياة أم عانت من إدمان أو عنف أسري أو أسرة بديلة تولت التربية بدل الأسرة البيولوجية ومع تكرار هذه القصص أدركت أن النموذج التقليدي للأسرة المستقرة ليس هو القاعدة كما قد نتصور بل أحد النماذج ضمن طيف واسع من الأشكال الأسرية التي فرضتها ظروف اجتماعية واقتصادية ونفسية معقدة.

أتذكر أستاذة في معهد اللغة في سياتل كانت تحمل ملامح مختلطة تنتمي إلى أكثر من أصل وحين توطدت العلاقة وساد الحديث عن الخلفيات الشخصية حكت لي بهدوء كيف أنها تعرف والدها البيولوجي لكنه لم يكن حاضرًا في طفولتها بسبب تعاطيه للمواد المخدرة وكيف انتهى بها الأمر إلى أسرة أخرى تبنتها وربتها ولم تكن هذه الحكاية استثناءً فقد التقيت لاحقًا أستاذة جامعية تحمل قصة قريبة في تفاصيلها ومع تكرار هذا النمط بدأ يتشكل لدي وعي بأن الدولة والمجتمع الأمريكيين طوّرا منظومة قانونية واجتماعية للتعامل مع التفكك الأسري عبر التبني والرعاية البديلة لكن ذلك لا يلغي الأثر النفسي العميق الذي يحمله

الأفـراد معهـم إلى مراحـل متقدمـة مـن حياتهـم وكأن الاسـتقرار القانـوني لا يعـوّض دائمًـا الفقـد العاطفـي.

ومـن التفاصيـل الاجتماعيـة اليوميـة التـي لا يمكـن تجاهلهـا ثقافـة البقشـيش وهـي ثقافـة متجـذرة إلى حـد يجعلهـا جـزءًا مـن السـلوك الاجتماعـي لا مجـرد تـصرف اختيـاري فالذهـاب إلى مطعـم والجلـوس عـلى الطاولـة يعنـي ضمنيًـا التزامًـا غـير مكتـوب بتقديـم نسـبة معتـبرة مـن قيمـة الفاتـورة للنـادل أو مقـدم الخدمـة وغالبًـا مـا تبـدأ هـذه النسـبة مـن عشريـن في المئـة وقـد تنخفـض في أسـوأ الأحـوال إلى عـشرة في المئـة وحتـى هـذه الأخـيرة تُعـد تعبـيرًا عـن عـدم الرضـا أكـثر مـن كونهـا تصرفًـا طبيعيًـا هـذا النظـام خلـق نمطًـا اجتماعيًـا خاصًـا حيـث يصبـح الابتسـام والترحيـب والمبالغـة في اللطـف جـزءًا مـن آليـة العمـل لا بدافـع أخلاقـي خالـص بـل لأن دخـل العامـل معلـق برضـا الزبـون وهنـا تتحـول العلاقـة الإنسـانية البسـيطة إلى معادلـة اقتصاديـة دقيقـة تُنقـل فيهـا مسـؤولية تحسـين دخـل العامـل مـن صاحـب العمـل إلى المسـتهلك باسـتثناء مطاعـم الوجبـات السريعـة حيـث يغيـب هـذا العـرف وتختلـف طبيعـة التفاعـل.

وعـلى خـلاف الصـورة النمطيـة التـي كانـت راسـخة قبـل السـفر وجـدت أن الحديـث عـن السياسـة لم يعـد مـن المحرمـات الاجتماعيـة كـما كان يُشـاع سـابقًا بـل أصبـح حـاضرًا في النقاشـات اليوميـة حتـى مـع الغربـاء وفي المقاهـي وقاعـات الدراسـة وأماكـن الانتظـار وقـد لاحظـت مـن خـلال حديثـي مـع أمريكيـين كبـار في السـن أن هـذا الانفتـاح السـياسي نسـبيًا ظاهـرة حديثـة ارتبطـت بحالـة الاسـتقطاب الحـاد التـي شـهدها المجتمـع في العقـد الثـاني مـن القـرن الحـادي والعشريـن إذ قـال لي أكـثر مـن شـخص إنهـم لم يكونـوا يتحدثـون في السياسـة بهـذا الشـكل مـن قبـل وأن النقـاش السـياسي كان موسـميًا يشـتد مـع الانتخابـات ثـم يخفـت بعدهـا لكـن حـدة الانقسـام جعلـت السياسـة حـاضرة في تفاصيـل الحيـاة اليوميـة وكأنهـا أصبحـت جـزءًا مـن الهويـة الشـخصية لا مجـرد موقـف عابـر

ومـن التحـولات الاجتماعيـة اللافتـة التـي عايشـتها عـن قـرب مسـألة تشريـع تعاطـي الماريجوانـا في عـدد مـن الولايـات وهـو تحـول لم يكـن مجـرد تغيـير قانـوني بـل انعكـس بسرعـة عـلى السـلوك العـام والمشـهد الحـضري أتذكـر عـودتي إلى سـياتل في نهايـة عـام ٢٠١٥ بعـد انقطـاع دام قرابـة عامـين وكيـف فوجئـت بالانتشـار الواسـع لمحـلات بيـع الماريجوانـا في الشـوارع الرئيسـية والفرعيـة وبالعلنيـة الواضحـة في التعاطـي مقارنـة بمـا كان عليـه الوضـع سـابقًا هـذا التغـير السريـع كشـف لي كيـف يمكـن للقانـون أن يعيـد تشـكيل المعايـير الاجتماعيـة في فـترة زمنيـة قصـيرة وكيـف ينتقـل السـلوك مـن خانـة الممنـوع اجتماعيًـا إلى المبـاح والعـادي دون مقاومـة تُذكـر حـين تتغـير المرجعيـة القانونيـة. ولا يمكـن الحديـث عـن المشـهد الاجتماعـي في المـدن الكـبرى دون التوقـف عنـد ظاهـرة المشرديـن وهـي مـن أكـثر المشـاهد إيلامًـا وتناقضًـا مـع صـورة الرفـاه التـي تُصـدّر عـن أمريـكا ففـي سـياتل كان مـن المألـوف أن تـرى أشـخاصًا ينامـون أمـام المحـلات التجاريـة أو يفترشـون الأرصفـة خاصـة في المناطـق القريبـة مـن الجامعـة وتتكـرر هـذه المشـاهد في مـدن أمريكيـة كـبرى أخـرى بينـما تقـل حدتهـا في المـدن الصغـيرة حيـث تكـون تكاليـف المعيشـة أقـل وضغـوط الحيـاة أخـف ويعكـس هـذا التفـاوت العلاقـة المعقـدة بـين غـلاء السـكن والإدمـان والمـرض النفـسي وضعـف شـبكات الدعـم الاجتماعـي في الحـواضر الكـبرى.

وفي الحيـاة الجامعيـة تحديـدًا يـبرز تعاطـي الكحـول كظاهـرة اجتماعيـة مؤثـرة لم ألحـظ انتشـار السـكر في سـاعات الصبـاح لكـن مـع اقـتراب المسـاء تبـدأ الملامـح في التغـير خاصـة في المـدن الجامعيـة حيـث تُعـد الحفـلات جـزءًا مـن الثقافـة الطلابيـة ويجـد كثـير مـن الطـلاب أنفسـهم لأول مـرة بعيديـن عـن رقابـة الأسرة وفي بيئـة تشـجع عـلى التجربـة والانفـلات وقـد كان لتعاطـي المسـكرات أثـر واضـح في تعـثر بعـض الطـلاب أكاديميًـا وانسـحابهم مـن الدراسـة في سـنواتهم الأولى قبـل أن يدركـوا ثمـن الحريـة غـير المنضبطـة

وفي المناسبات الاجتماعية والعطل الرسمية يظهر وجهٌ آخر للمجتمع الأمريكي، وجهٌ أكثر احتفالية وتنظيمًا، يعكس تنوع هذا المجتمع وتعدد مرجعياته الثقافية. فالهالوين، على سبيل المثال، يتحول إلى حدث اجتماعي واسع؛ تُغلق فيه بعض الشوارع أحيانًا، وترتدي فيه الفئات العمرية المختلفة أزياء غريبة أو رمزية، يستلهم بعضها ثقافات متعددة. وقد رأيت في بعض الأحيان أزياء عربية تُستخدم دون إدراك لمعناها الثقافي الأصلي، ويترافق هذا اليوم مع حفلات صاخبة، خاصة في الأوساط الطلابية، حيث يختلط الترفيه بالاستعراض الاجتماعي. أما يوم الشكر فيحمل طابعًا مختلفًا تمامًا؛ إذ تتراجع وتيرة الحياة العامة، وتُغلق متاجر كثيرة، ويُنظر إليه بوصفه مناسبة عائلية خالصة، تتركز حول لمّة الأسرة واستحضار قيم الامتنان والبساطة، بعيدًا عن الصخب اليومي. ويأتي عيد الميلاد ليجمع بين البعد الاجتماعي والبعد الاقتصادي؛ فتزدان المدن بالأضواء والزينة، وتزدهر الحركة التجارية، وتتكثف اللقاءات العائلية في موسم يجمع بين الاستهلاك والرمزية الدينية والاجتماعية في آنٍ واحد. أما يوم رأس السنة الميلادية فيحتفل به الأمريكيون كما تحتفل به معظم شعوب العالم، بطابع احتفالي عام تتخلله الفعاليات العامة والتجمعات. ولديهم كذلك احتفالية خاصة بيوم الاستقلال في الرابع من يوليو، حيث تُحيى ذكرى الاستقلال عن التاج البريطاني، وتغلب على هذا اليوم مظاهر الفخر الوطني والعروض والألعاب النارية. ويحتفون أيضًا بيوم الرؤساء بوصفه مناسبة وطنية تستحضر رموز القيادة السياسية في تاريخهم، ويوم مارتن لوثر كينغ الذي يحمل بعدًا حقوقيًا وأخلاقيًا عميقًا مرتبطًا بتاريخ النضال من أجل الحقوق المدنية، إضافة إلى يوم العمل الذي يُنظر إليه بوصفه تكريمًا للعمال وإسهامهم في بناء المجتمع والاقتصاد. وتعكس هذه المناسبات مجتمعة طبيعة المجتمع الأمريكي، حيث تتداخل الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والوطنية، وتظهر المناسبات بوصفها محطات لإعادة إنتاج الهوية الجماعية، كلٌّ بطريقته ورمزيته الخاصة.

وفي تفاصيل الحياة اليومية لفت نظري أن التدخين ليس منتشرًا بشكل لافت كما هو الحال في بعض المجتمعات الأخرى حتى المدخنون غالبًا ما يكونون أقل شراهة نتيجة القيود الصارمة وارتفاع الضرائب وتغير النظرة الاجتماعية أما البدانة فقد لاحظت تفاوتًا إقليميًا واضحًا إذ بدت أقل انتشارًا في الغرب الأمريكي مقارنة بالوسط الغربي وهو ما يعكس اختلاف أنماط الحياة والغذاء ومستوى النشاط البدني بين المناطق. وخلال تلك السنوات كانت هناك قضيتان اجتماعيتان تفرضان حضورهما بقوة في النقاشات العامة والأندية الطلابية الأولى تتعلق بالحراك المطالب بحقوق السود وظهور شعار حياة السود مهمة بعد حوادث متكررة قُتل فيها أمريكيون سود على يد الشرطة وهو ما فجّر نقاشًا وطنيًا واسعًا حول العنصرية البنيوية والعنف الشرطي وعدم المساواة أمام القانون وأعاد إلى الواجهة ملفات ظن كثيرون أنها أُغلقت منذ عقود أما القضية الثانية فتمثلت في الجدل الواسع حول حقوق الفئات الشاذة جنسيًا والتي شهدت اعترافًا قانونيًا متزايدًا في عدد كبير من الولايات وترافق ذلك مع انقسام اجتماعي حاد بين من يرى في ذلك انتصارًا للحريات الفردية ومن يراه تهديدًا للقيم التقليدية .ومع تداخل هذه المشاهد كلها تتشكل صورة مجتمع يتحرك بسرعة كبيرة مجتمع يمنح الفرد حرية واسعة لكنه في المقابل يحمّله مسؤولية ثقيلة عن خياراته دون شبكة أسرية صلبة أو إطار جماعي داعم كما هو الحال في مجتمعات أخرى وبين التفكك الأسري والحرية المفتوحة والجدل القيمي الدائم تظهر أمريكا الاجتماعية كما عشتها تجربة غنية بالتعلم والمقارنة لكنها تجربة لا تخلو من كلفة نفسية وإنسانية عالية يدفعها الأفراد بصمت وهم يمارسون حياتهم اليومية في ظل تحولات لا تتوقف

المشاهدة الخامسة: الأمن في الولايات المتحدة.

المشاهدة الخامسة: الأمن في الولايات المتحدة

قبل وصولي إلى الولايات المتحدة كنت أحمل في ذهني صورة أمنية تشبه إلى حد كبير ما تصنعه الأفلام الأمريكية صورة مدن لا تهدأ وصفارات إنذار لا تنقطع وشرطة حاضرة دائمًا في مشاهد العنف والمطاردات والتوتر وكغيري من كثير من السعوديين تشكل هذا الانطباع عبر الشاشة أكثر مما تشكل عبر المعرفة المباشرة ولهذا وصلت وأنا أضع في حسابي احتمالات الاحتكاك والمضايقة وسوء الفهم خاصة بصفتي أجنبيًا ومسلمًا لكن السنوات التي قضيتها هناك سرعان ما بددت هذه الصورة ووضعتني أمام واقع مختلف أكثر هدوءًا وأقرب إلى التنظيم منه إلى الفوضى. في المجمل كان الشعور بالأمان حاضرًا في معظم المدن التي عشت فيها أو زرتها ولم أمر بحمد الله بأي تجربة تهديد مباشر أو مضايقة أو تمييز لا بسبب ديني ولا جنسيتي ولا كوني طالبًا أجنبيًا بل إن هذا الشعور كان مشتركًا بين غالبية الطلاب السعوديين الذين التقيتهم كثيرون منا وصلوا وهم يتوقعون احتكاكات أمنية أو نظرات مريبة أو معاملة خاصة ثم اكتشفوا أن الحياة اليومية تمضي بهدوء وأن رجل الشرطة في الغالب ليس ذلك الوجه المتجهم الذي تقدمه السينما بل موظف يؤدي عمله ضمن إطار قانوني واضح. أول احتكاك مباشر لي مع الشرطة كان في نوفمبر عام ٢٠١١ خلال إجازة عيد الشكر كنت أسكن شقة في مدينة بولمان واجتمع لدي عدد من الطلاب السعوديين كنا نلعب الورق ونتبادل الحديث وضحكنا يمتد دون أن ننتبه للوقت حتى قاربت الساعة الحادية عشرة ليلًا وفجأة سمعنا طرقًا على الباب فتحته بارتباك فإذا برجل شرطة يقف أمامي كان كبيرًا في السن هادئ الملامح لا يحمل أي توتر لكن الموقف نفسه كان كافيًا لإرباكي خاصة أن لغتي الإنجليزية في تلك الفترة كانت ضعيفة جدًا وبحسن نية ممزوج بالخوف قدمت له قطعة من الدونات التي كانت لدينا فابتسم وضحك وكان واضحًا عليه تقبله للموقف وهو أمر له دلالته الثقافية المعروفة في المجتمع الأمريكي حيث يُمزح كثيرًا حول حب رجال الشرطة للدونات.







صور لمدينة بولمان، وفي المنتصف صورة التقطتُها فيما أذكر لأول شقة سكنتُ فيها في بولمان.

بعد لحظات تدخل أحد الأصدقاء وكان يجيد الإنجليزية وشرح لي أن هناك شكوى من أحد الجيران بسبب الإزعاج وأن القانون يمنع الضوضاء بعد العاشرة مساءً لم يكن هناك تهديد ولا تحرير مخالفة بل مجرد تنبيه بسيط غادر الشرطي بابتسامة وانتهى الموقف وكأن شيئًا لم يكن تلك الحادثة رغم بساطتها تركت لدي أثرًا عميقًا لأنها كانت أول اختبار حقيقي بين الصورة الذهنية والواقع العملي وأظهرت لي أن الشرطة في التعامل اليومي تميل إلى الهدوء والتدرج أكثر مما تميل إلى التصعيد

التجربة الثانية كانت مع شرطة المرور في مدينة سبوكان القريبة؛ إذ تبعد نحو ساعة ونصف عن بولمان، وتُعدّ من أكبر المدن المجاورة لها. ففي إحدى المرات قدتُ السيارة، عن طريق الخطأ، عكس السير في أحد الشوارع. أوقفني الشرطي

وبدأ الحديث معي، وبسبب ضعفي اللغوي حاولتُ بصعوبة أن أشرح له أنني طالب أجنبي ولا أجيد الإنجليزية جيدًا. تحقّق من البيانات، ثم اكتفى بتنبيهي وسمح لي بالمغادرة دون تحرير مخالفة. وكان واضحًا أن هناك مساحة لتقدير الظرف الإنساني، خاصةً عندما يكون الخطأ غير مقصود ولا ينطوي على تهوّر. وفي ولاية إنديانا حدث موقف آخر أوقفني فيه شرطي مرور للتأكد من بيانات السيارة فقط دون أن أكون قد ارتكبت مخالفة واضحة تم الأمر بهدوء تام استغرق دقائق معدودة ثم سمح لي بالانصراف دون أي تعقيد في أي من هذه المواقف لم أشعر بتوتر مفرط ولا استعلاء ولا معاملة خشنة بل كان التعامل مهنيًا مباشرًا يخلو من التعقيد

من خلال هذه التجارب المحدودة يمكن القول إن التعامل الأمني في الولايات المتحدة يقوم في الغالب على مبدأ الإجراء قبل العقوبة وعلى افتراض حسن النية خاصة في المخالفات البسيطة النظام هناك صارم في نصوصه لكن تطبيقه اليومي يحمل قدرًا من المرونة ويتأثر بسلوك الشخص وطبيعة الخطأ وطريقة التفاعل مع رجل الأمن وهذا يفسر لماذا تختلف التجربة الواقعية لكثير من الناس عن الصورة الدرامية التي ترسخها الأفلام والمسلسلات. ولا يعني هذا بطبيعة الحال أن الولايات المتحدة خالية من المشكلات الأمنية أو من حوادث العنف فهذه وقائع موجودة ومعلنة لكن ما أدركته من خلال المعايشة أن هذه الحالات ليست هي القاعدة اليومية لمن يعيش حياة مستقرة بعيدًا عن البيئات عالية الجريمة وأن رجل الشرطة في الحياة العادية يؤدي دورًا تنظيميًا أكثر منه دورًا صداميًا. وفي المحصلة كانت تجربتي مع الأمن والشرطة في الولايات المتحدة مطمئنة إلى حد كبير لم أشعر بالخوف ولم أتعرض لمضايقات بل وجدت احترامًا وهدوءًا وتعاملًا إنسانيًا ساعدني ومعي كثير من الطلاب السعوديين على الاستقرار النفسي والتكيف السريع مع المجتمع الجديد وهكذا اتضح لي أن الفجوة بين الصورة المتخيلة قبل السفر والواقع المعاش بعد الوصول كانت واسعة فعلًا لكنها هذه المرة فجوة لصالح الواقع لا ضده

المشاهدة السادسة: التعامل مع العنصرية.

المشاهدة السادسة: التعامل مع العنصرية

قبل الوصول إلى الولايات المتحدة كان الخوف من العنصرية حاضرًا في الذهن بقوة لا بوصفه احتمالًا عابرًا بل كهاجس حقيقي يرافق التفكير في الغربة والدراسة والاندماج فالصورة التي تصل إلى كثير من الطلاب العرب والمسلمين تتشكل غالبًا عبر وسائل الإعلام وخطاب سياسي وإعلامي ربط في مراحل طويلة بين الإسلام والعنف وصوّر العربي والمسلم بوصفه الآخر المثير للريبة ومع تكرار هذه الصور تتضخم التوقعات ويصبح الاستعداد النفسي للمواجهة جزءًا من الاستعداد للسفر نفسه وكأن الطالب يدخل التجربة وهو يضع درعًا غير مرئي تحسبًا لنظرات أو كلمات أو مواقف قد لا تأتي أصلًا. غير أن ما عشته على أرض الواقع كان مختلفًا إلى حد بعيد فخلال سنوات الإقامة والدراسة لم أتعرض بحمد الله لأي موقف عنصري مباشر لم أسمع إساءة لفظية ولم أواجه سلوكًا عدائيًا ولم أشعر بإقصاء داخل قاعات الدراسة أو في الفضاءات العامة بل على العكس كانت معظم التفاعلات اليومية عادية هادئة يغلب عليها الاحترام وأحيانًا الفضول الإيجابي والرغبة في الفهم وكان هذا في حد ذاته مفاجئًا لأن الإنسان حين يحمل توقعًا سلبيًا طويلًا يفسر الصمت على أنه ترقب والنظرة على أنها حكم مسبق لكن مع الوقت يتعلم أن كثيرًا مما نظنه عداءً هو في الحقيقة جهل أو فضول أو حتى حياد بارد لا يحمل نية الإساءة

ورغم أنني كنت أعزبًا فإنني كنت قريبًا من تجارب الطالبات المسلمات المحجبات وكنت أتوقع أن يكن الأكثر عرضة للمضايقات بحكم وضوح الهوية الدينية في المظهر لكن ما رأيته وما سمعته منهن خالف هذا التصور إلى حد كبير لم تكن هناك حوادث مضايقة متكررة ولا اعتداءات ولا سلوكيات عدائية ممنهجة بل كانت الحياة تمضي بهدوء في القاعات الدراسية والمرافق العامة وهذه الملاحظة الشخصية لم تكن انطباعًا عابرًا بل عززتها نتائج دراساتي العلمية المنشورة عن الطلاب السعوديين في الولايات المتحدة حيث أظهرت أن عددًا كبيرًا من الطالبات كنّ يتوقعن مسبقًا التعرض لمواقف سلبية بسبب الحجاب لكن تلك التوقعات لم

تتحقـق في الغالـب ولم تُسـجل تجاربهـن حـوادث مؤذيـة تُذكـر وكان هـذا الفـارق بـين التوقـع الذهنـي والواقـع الميـداني لافتًـا لأنـه يكشـف كيـف يمكـن للصـورة المسـبقة أن تكـون أقسى مـن التجربـة نفسـها.

ومـع مـرور الوقـت بـدأ يتشـكل لـدي انطبـاع أكـثر تعقيـدًا عـن المجتمـع الأمريـكي بعيـدًا عـن الثنائيـة السـطحية بـين عنـصري وغـير عنـصري فقـد التقيـت عـددًا كبـيرًا مـن الأمريكيـين الذيـن أبـدوا تعاطفًـا صادقًـا مـع قضايـا المسـلمين والعـرب خاصـة القضايـا الإنسـانية والحقوقيـة ولم يكـن هـذا التعاطـف في الغالـب موقفًـا سياسـيًا صريحًـا أو انتـماءً أيديولوجيًـا بقـدر مـا كان تعبـيرًا إنسـانيًا نابعًـا مـن رغبـة في الفهـم والعـدل وكان كثـيرون يسـألون بدافـع المعرفـة لا الجـدل ويحاولـون الاسـتماع إلى الروايـة الأخـرى بعيـدًا عـن التغطيـات الإعلاميـة السـائدة وهـذا النـوع مـن الحـوار البسـيط كان كفيـلًا بتفكيـك كثـير مـن الأحـكام الجاهـزة لـدى الطرفـين. وقـد تجـلى هـذا التعاطـف بوضـوح في فـترات لاحقـة بعـد أحـداث كـبرى شـهدها العـالم ولا سـيما بعـد السـابع مـن أكتوبـر ومـا تـلاه مـن اجتيـاح قطـاع غـزة حيـث شـهدت مـدن أمريكيـة عديـدة احتجاجـات واسـعة عـبّرت عـن رفـض العـدوان والتضامـن مـع الشـعب الفلسـطيني وكانـت المـدن الجامعيـة حـاضرة بقـوة في هـذه المشـاهد عـبر مسـيرات ونـدوات ونقاشـات مفتوحـة داخـل الحـرم الجامعـي وحـين تـرى طلابًـا أمريكيـين يرفعـون شـعارات إنسـانية ويناقشـون قضايـا بعيـدة عـن جغرافيتهـم تـدرك أن الجامعـة هنـاك ليسـت مجـرد مؤسسـة تعليميـة بـل مسـاحة حقيقيـة للنقـاش الأخلاقـي والسـياسي وأن شريحـة واسـعة مـن الشـباب الأمريـكي أصبحـت أكـثر وعيًـا بالقضايـا العالميـة وأقـل انقيـادًا للسرديـات الرسـمية الجاهـزة.

ومـع ذلـك فـإن الإقـرار بهـذه التجربـة الإيجابيـة لا يعنـي إنـكار وجـود العنصريـة في الولايـات المتحـدة فهـي موجـودة بـلا شـك لكنهـا في تقديـري ليسـت بالحـدة ولا بالانتشـار الـذي يُصـوَّر غالبًـا خاصـة في الحيـاة اليوميـة للطـلاب الدوليين داخـل البيئات الأكاديميـة فالعنصريـة هنـاك كثـيرًا مـا تكـون بنيويـة أو مؤسسـية أكـثر مـن كونهـا فرديـة مبـاشرة تظهـر في السياسـات وفي فـرص العمـل وفي أنمـاط العدالـة الجنائيـة

أكـثر مـما تظهـر في الاحتـكاكات الشـخصية اليوميـة داخـل الجامعـة أو الشـارع كـما أن البيئـة الأكاديميـة تحديـدًا توفّـر قـدرًا أعـلى مـن الانفتـاح والتسـامح بحكـم تنوعهـا واعتيادهـا عـلى وجـود الأجانـب وارتباطهـا بثقافـة الحـوار والنقـاش وهـذا مـا يفـسر لمـاذا جـاءت تجاربنـا نحـن الطـلاب أقـل سـلبية بكثـير مـما كنـا نتوقـع قبـل السـفر. وفي المحصلـة كشـفت هـذه التجربـة أن الخـوف مـن العنصريـة كان في جانـب كبـير منـه خوفًـا ذهنيًـا غذتـه الصـور البعيـدة أكـثر مـما كان واقعًـا معيشًـا فالصورة المسـبقة بـدت أقسى مـن التجربـة الفعليـة وبـين مـا يُقـال عـن المجتمـع الأمريـكي ومـا يُعـاش داخلـه مسـافة واسـعة لا تُـدرك إلا بالمعايشـة اليوميـة لقـد وجـدت مجتمعًـا معقـدًا متناقضًـا أحيانًـا لكنـه ليـس مغلقًـا ولا عدائيًـا بطبيعتـه تجـاه المسـلمين والعـرب بـل فيـه مسـاحات واسـعة للتعاطـف والحـوار والتضامـن الإنسـاني حـين تُقـدَّم القضايـا بوضـوح وعـدل وهكـذا كانـت تجربتـي مـع مـا يسـمى بالعنصريـة تجربـة تفكيـك للخـوف أكـثر مـن كونهـا مواجهـة لـه وتجربـة تعلمـت منهـا أن الواقـع في كثـير مـن الأحيـان أرحـم مـن الصـور التـي نرسـمها عنـه مـن بعيـد

المشاهدة السابعة: الحالة الدينية في الولايات المتحدة.

المشاهدة السابعة: الحالة الدينية في الولايات المتحدة

خلال سنوات المعايشة اليومية للحياة الأمريكية بدأت تتشكل لدي صورة دينية مختلفة تمامًا عما كنت أتصوره قبل السفر صورة لا تقوم على التوازن أو التدرج بقدر ما تقوم على النقيض الحاد وكأن المجتمع الديني هناك يتحرك بين طرفين متباعدين دون مساحة وسط واسعة يمكن الوقوف عندها فمن جهة توجد فئة واسعة لا دينية تضم اللاأدريين والملحدين ومن لا يكترثون أصلًا بالانتماء الديني ومن جهة أخرى توجد فئة متدينة بدرجة عالية يظهر الدين فيها بوصفه عنصرًا مركزيًا في الهوية والسلوك والخطاب الأخلاقي وبين هذين الطرفين تبدو الوسطية الدينية محدودة الحضور ضعيفة الأثر. وفي المدن الكبرى والمناطق السياحية يتجلى هذا الأمر بوضوح لافت فالدين في هذه البيئات يكاد يكون غائبًا عن المشهد العام لا يظهر في الحديث اليومي ولا في الفضاءات العامة ولا في تشكيل القيم المشتركة يعيش كثير من الناس هناك حياتهم دون أن يكون للدين أي حضور يُذكر في قراراتهم أو سلوكهم أو علاقاتهم الاجتماعية ويُنظر إلى التدين بوصفه مسألة شخصية بحتة لا مكان لها خارج الجدران الخاصة هذا الطابع العلماني الواضح لا يُفرض بالقوة لكنه يُمارس بالعرف الاجتماعي بحيث يصبح الحديث الديني في الأماكن العامة أمرًا غير مألوف بل وأحيانًا غير مرغوب فيه. لكن المشهد يتغير جذريًا حين تنتقل إلى مناطق أخرى خاصة في الوسط الغربي الأمريكي حيث يظهر التدين بوضوح أكبر وتغلب البروتستانتية على الحياة الاجتماعية والثقافية هناك الكنيسة ليست مجرد مكان عبادة بل مؤسسة اجتماعية حاضرة في تفاصيل المجتمع المحلي وفي الخطاب الأخلاقي وفي العلاقات بين الناس ويبدو أن لهذا الحضور جذورًا تاريخية عميقة تعود إلى بدايات الاستيطان الأوروبي حيث ارتبطت الكنائس البروتستانتية بالهوية المحلية وبالمجتمعات الزراعية الصغيرة المتماسكة التي حافظت على نمط حياتها وقيمها عبر أجيال متعاقبة. أما الكاثوليكية فقد لاحظت تراجعها النسبي مقارنة بالبروتستانتية لكن هذا التراجع قابله صعود عددي بفعل الهجرة غير النظامية من دول أمريكا اللاتينية حيث

أسهم الهسبانك بشكل واضح في رفع نسبة الكاثوليك في بعض الولايات والمدن الكبرى وبذلك أصبح المشهد المسيحي في الولايات المتحدة مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالتحولات السكانية وأنماط الهجرة أكثر من ارتباطه بالتحول الديني الداخلي. وإلى جانب هذا كله يبرز الحضور الإسلامي بوصفه حضورًا عدديًا متزايدًا وموثقًا في الإحصاءات الرسمية نتيجة الهجرة والدراسة واللجوء غير أن هذا الحضور الكمي لا يقابله حضور مؤسسي منظم بالقوة نفسها التي تتمتع بها بعض الطوائف المسيحية وهو فارق له أثره الواضح في الفضاءات العامة والجامعية على وجه الخصوص

ومن أكثر ما لفت انتباهي في هذا السياق النشاط المكثف والمنظم للمنظمات والوكالات النصرانية داخل الجامعات الأمريكية هذا النشاط لا يستهدف في الغالب الطلاب الأمريكيين الذين يظهر كثير منهم قدرًا من اللامبالاة تجاه القضايا الدينية بل يوجَّه بذكاء واضح نحو الطلاب الدوليين خاصة القادمين من شرق آسيا ومن الدول الإسلامية وما يميز هذا العمل ليس حدته بل هدوءه وصبره وطول نَفَسه. هذه الجهات لا تبدأ بخطاب ديني مباشر ولا بمحاولة استقطاب عقدي صريح بل تعتمد مدخلًا اجتماعيًا وثقافيًا ناعمًا تنظيم جلسات لغوية أنشطة ترفيهية رحلات برامج تعارف دعم اجتماعي للطلاب الجدد الهدف الظاهر هو الاندماج وتسهيل الحياة في بيئة جديدة وغريبة وهو ما يجعل الطالب الدولي يشعر بالألفة والانتماء ويخفف من شعوره بالوحدة والاغتراب وبعد بناء هذه العلاقة تبدأ المرحلة الدينية بشكل تدريجي غير صدامي وغير مباشر وكأن الدين يأتي في مرحلة لاحقة بعد أن تُلبى الحاجة النفسية والاجتماعية. هذا الأسلوب يعكس فهمًا عميقًا لطبيعة الطالب الدولي ولحاجته إلى الدعم قبل الاقتناع ويكشف عن احترافية عالية في العمل الدعوي من حيث التخطيط والتدرج وتقسيم الأدوار فقد لاحظت وجود تنسيق واضح بين الكنائس والجمعيات التابعة لها وتمويل كبير واستعداد لإنفاق مبالغ معتبرة في سبيل استقطاب الطلاب الدوليين إضافة إلى مشاركة أعداد كبيرة من المتطوعين بما يسمح بحضور دائم وفعّال داخل الحرم الجامعي وفي الأنشطة الطلابية المختلفة. وفي بعض الحالات تُقدَّم تلميحات أو

وعـود غـير مبـاشرة تتعلـق بالدعـم الاجتماعـي أو القانـوني بـل وأحيانـًا يُشـار إلى فـرص الحمايـة أو اللجـوء في حـال تغيـير الديـن وهـو عامـل قـد يكـون مؤثـرًا لـدى بعـض الفئـات الهشـة نفسـيًا أو اجتماعيًـا خاصـة مـن يعيشـون ضغـط الغربـة وضعـف الدعـم الأسري. كل هـذه المشـاهد تكشـف أن الديـن في الولايـات المتحـدة ليـس غائبًـا كـما قـد يُظـن ولا حـاضرًا بشـكل متـوازن بـل هـو إمـا منسـحب مـن الحيـاة العامـة في بيئـات واسـعة أو حـاضر بقـوة مؤسسـية منظمـة في مسـاحات محـددة وفي الوقـت الـذي يبـدو فيـه الخطـاب الدينـي الإسـلامي ضعيـف التنظيـم داخـل الجامعـات يظهـر النشـاط التنصـيري منظـمًا صبـورًا طويـل النفـس يعـرف كيـف يخاطـب الإنسـان مـن مدخلـه النفـسي والاجتماعـي قبـل العقـدي. ويتضـح أيضًـا أن الطالـب الـدولي يمثـل سـاحة تنافـس دينـي وثقـافي لا لأنـه يبحـث بالـضرورة عـن تغيـير عقيدتـه بـل لأنـه يعيـش حالـة وحـدة وبعـد عـن الأسرة وحاجـة حقيقيـة إلى الدعـم والانتـماء وحـين يغيـب البديـل الاجتماعـي والثقـافي المتـوازن يـترك ذلـك فراغـًا قـد تملـؤه جهـات أخـرى بـذكاء وتنظيـم

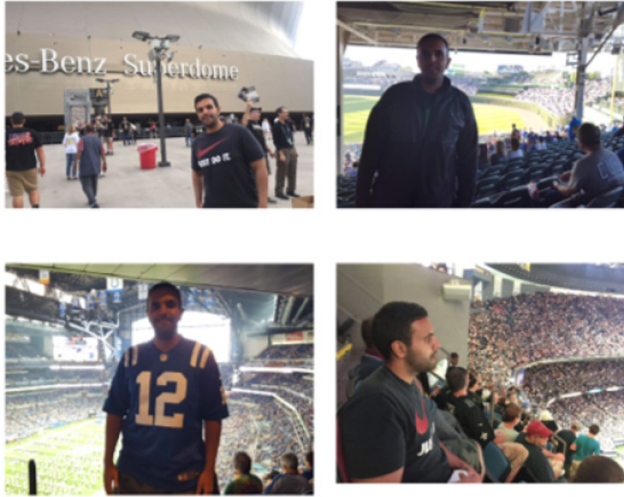
المشاهدة الثامنة: المنافسات الرياضة في الولايات المتحدة.

المشاهدة الثامنة: المنافسات الرياضة في الولايات المتحدة

حين تعيش في الولايات المتحدة لفترة كافية تدرك أن الرياضة ليست نشاطًا جانبيًا يُمارس في أوقات الفراغ بل هي جزء من نسيج الحياة اليومية ولغة اجتماعية مشتركة وفضاء واسع تتقاطع فيه المتعة بالهوية والتعليم بالاقتصاد فالأمريكي لا يتابع الرياضة بوصفها مباراة تنتهي مع صافرة الحكم بل بوصفها تجربة كاملة تبدأ قبل المباراة بساعات وتمتد بعدها إلى النقاش والتحليل والانتماء والذاكرة ويلاحظ منذ البداية أن المجتمع الأمريكي يميل إلى ألعابه الخاصة كرة القدم الأمريكية وكرة السلة وكرة القاعدة بوصفها رموزًا ثقافية قبل أن تكون مسابقات رياضية في حين تحضر كرة القدم العالمية حضورًا متناميًا لكنه لا يزال دون شعبية الألعاب المتجذرة في الوعي الأمريكي. غير أن ما شد انتباهي بعمق وأعاد تشكيل فهمي للرياضة هو المكانة الاستثنائية التي تحتلها الرياضة الجامعية فهي ليست نشاطًا طلابيًا محدودًا ولا منافسات داخلية بسيطة بل قلب المنظومة الرياضية الأمريكية ومحرك اقتصادي وإعلامي وثقافي ضخم فالجامعة هناك لا تُختزل في القاعات الدراسية والمختبرات بل تمتد إلى المدرجات والملاعب حيث تتشكل الهوية ويُبنى الولاء المؤسسي ويتحول اسم الجامعة إلى علامة تجارية معروفة على المستوى الوطني هذا القطاع تُشرف عليه منظومة منظمة ومحترفة هي NCAA التي تدير المنافسات وتضع القواعد وتربط الرياضة بالتعليم في إطار معقد يجمع بين الهواية والاحتراف (لمزيد من التفاصيل راجع كتابي التعليم العالي في الولايات المتحدة)

ومن خلال المعايشة المباشرة والقراءة البحثية يتضح أن الرياضة الجامعية تمثل مصدر دخل رئيسًا لكثير من الجامعات ورافعة دعائية لا تقل أثرًا عن التصنيفات الأكاديمية فمباريات كرة القدم الأمريكية وكرة السلة على وجه الخصوص تحظى بحضور جماهيري كثيف وتغطية إعلامية واسعة وعقود بث بمبالغ ضخمة واللافت أن ملاعب بعض الجامعات تفوق ملاعب المحترفين سعة وحضورًا إذ يتجاوز عدد المتفرجين في بعض المباريات حاجز المئة ألف متفرج في مشهد يصعب تصوره

خارج السياق الأمريكي ويعكس عمق العلاقة بين الجامعة والمجتمع المحلي حيث يتحول يوم المباراة إلى مناسبة اجتماعية كبرى تتوقف فيها المدينة تقريبًا لتعيش الحدث بكل تفاصيله. وقد حضرت عددًا من مباريات المحترفين في ولايات مختلفة ضمن دوريات مثل NFL وNBA وMLB وكانت التجربة في مجملها عرضًا متقنًا لا يقتصر على اللعب داخل الملعب بل يمتد إلى الاستعراضات الفنية والتنظيم الدقيق والتفاعل الجماهيري المستمر بحيث لا يشعر المشاهد بالملل لحظة واحدة غير أن هذه التجربة غالبًا ما تكون مكلفة ماديًا خصوصًا لمن لا ينتمي إلى الجامعة أو الفريق حيث ترتفع أسعار التذاكر والخدمات المصاحبة ومع ذلك يظل الإقبال كبيرًا لأن المباراة هنا ليست مجرد مشاهدة بل مناسبة اجتماعية متكاملة.



صور من حضوري لبعض المنافسات الرياضية.

وفي داخـل الحـرم الجامعـي تتخـذ الرياضـة بعـدًا آخـر لا يقـل أهميـة فالأنديـة الرياضيـة الجامعيـة ضخمـة ومجهـزة تجهيـزًا عاليًـا وتوفـر مسـاحات متنوعـة لممارسـة مختلـف الأنشـطة مـن رفـع الأثقـال والسـباحة إلى الألعـاب الجماعيـة والفنـون القتاليـة وقـد لاحظـت أن عـددًا كبـيرًا مـن الطـلاب يمارسـون الرياضـة بشـكل منتظـم لا بدافـع المنافسـة فقـط بـل باعتبارهـا جـزءًا مـن نمـط الحيـاة الجامعيـة الصحـي حيـث يسـهل الوصـول إلى المرافـق وتتنـوع الخيـارات ويصبـح الجيـم والملعـب جـزءًا مـن الروتـين اليومـي كـما هـي المكتبـة وقاعـة المحـاضرة. وحـين تحـاول قـراءة أسـباب نجـاح الرياضـة الجامعيـة تجـد أنهـا نتـاج اسـتثمار مؤسـسي طويـل المـدى وربـط ذكي بـين الرياضـة والإعـلام وتحويـل المنافسـات إلى أحـداث اجتماعيـة كـبرى واسـتغلال الرياضـة أداةً للتسـويق وجـذب الطـلاب والداعمـين مـع توفـير بنيـة تحتيـة رياضيـة عاليـة الجـودة لـكل مـن الفـرق التنافسـية والطـلاب العاديـين وبهـذا تحولـت الرياضـة الجامعيـة إلى قطـاع اقتصـادي قائـم بذاتـه ومختـبر لصناعـة النجـوم ومصـدر قـوي للانتـماء والهويـة (للتوسـع اقـراء دراسـتي بعنـوان: الرياضـة الجامعيـة في الولايـات المتحـدة :الأثـر الاقتصـادي ودروس مسـتفادة للتطبيـق في السـعودية). وفي بشـكل عـام تكشـف هـذه التجربـة أن الرياضـة في الولايـات المتحـدة ليسـت لعبـة تُلعـب وتنتهـي بـل منظومـة متكاملـة تجمـع الترفيـه بالاقتصـاد والهويـة بالتعليـم وبـين مدرج جامعـي يحتشـد فيـه عـشرات الآلاف وصالـة رياضيـة جامعيـة تعـج بالطـلاب يوميًـا تتجسـد فكـرة أن الرياضـة الأمريكيـة وبخاصـة الجامعيـة تمثـل نموذجًـا متقدمًـا يمكـن الاسـتفادة منـه أكاديميًـا واقتصاديًـا وقـد عشـت هـذا النمـوذج مشـاهدًا ودرسـته باحثًـا ورأيـت فيـه أحـد أسرار القـوة الناعمـة للجامعـة الأمريكيـة في القرنـين العشريـن و الحـادي والعشريـن.

المشاهدة التاسعة: قضايا قيادة المرأة.

المشاهدة التاسعة: قضايا قيادة المرأة

كانت قضايا المرأة من أكثر الموضوعات حضورًا في النقاشات الأكاديمية والاجتماعية داخل الولايات المتحدة، ولا سيما عند الحديث عن المملكة العربية السعودية. وفي مقدمة هذه القضايا برزت مسألة قيادة المرأة للسيارة بوصفها رمزًا اختزاليًا تُسقَط عليه تصورات واسعة عن وضع المرأة في المجتمع السعودي. فقد كان كثير من الأمريكيين يسمعون عن السعودية من خلال الإعلام، لكنهم في الغالب يمتلكون صورة مبسطة ومشوَّهة، تختزل مجتمعًا كاملًا في عنوان واحد أو ممارسة واحدة، وتغفل السياق التاريخي والثقافي والاجتماعي الذي تشكّلت داخله هذه القضايا. وفي السنوات الأولى من دراستي، كان منع قيادة المرأة في المملكة لا يزال قائمًا، وهو ما جعل هذا الموضوع يتكرر باستمرار في الحوارات مع الأمريكيين، سواء داخل القاعات الدراسية، أو في معاهد اللغة، أو في اللقاءات الاجتماعية اليومية. وكانت المفارقة التي تثير دهشة كثير منهم أن الطالبات السعوديات كنّ يقدن السيارات في الولايات المتحدة بحرية كاملة، ويتنقلن دون أي عائق قانوني أو اجتماعي، في حين أن الأمر ذاته لم يكن مسموحًا به داخل وطنهن في تلك الفترة. هذا التناقض الظاهري كان كفيلًا بفتح أبواب طويلة من الأسئلة، بعضها نابع من فضول معرفي صادق، وبعضها الآخر محمّل بأحكام مسبقة جاهزة. لم تقتصر الأسئلة على القيادة وحدها، بل امتدت إلى دور المؤسسات الدينية (هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، وحدود سلطتها، وما يُتصوَّر من تضييق على المرأة في الحياة العامة، بل وحتى إلى تفاصيل اجتماعية دقيقة تتعلق بالأسرة والعمل والتعليم. وكانت هذه القضايا تُطرح أحيانًا في نقاشات جانبية عابرة، لكنها في كثير من الأحيان كانت تُناقَش داخل القاعات الجامعية نفسها. فالجامعات الأمريكية خصوصًا في العلوم الاجتماعية تشجّع على النقاش المفتوح، وتدفع الطلاب إلى استحضار تجاربهم الوطنية والثقافية بوصفها مادة معرفية قابلة للتحليل والمقارنة.

وبحكم تخصصنا في العلوم الاجتماعية، وكوننا في برامج دراسات عليا، لم يكن من الممكن الانسحاب من هذه النقاشات أو الاكتفاء بالمشاهدة. كان المطلوب هو المشاركة، والتفسير، وتقديم الرأي في سياقه. ومع الوقت، تحوّل أسلوبنا في التعامل مع هذه القضايا من الدفاع العاطفي إلى الشرح الهادئ. لم نعد نركّز على تبرير موقف بعينه، بقدر ما ركّزنا على توضيح الإطار العام: كيف تتشكّل القيم الاجتماعية، وكيف يعمل التدرّج في التغيير، وكيف تختلف الممارسة الاجتماعية عن النص الديني، وعن القرار الإداري، وعن العرف السائد في مرحلة تاريخية معينة. كنا نؤكد أن قضايا المرأة في السعودية لا يمكن فهمها خارج سياقها، وأن التغيير الاجتماعي لا يحدث دفعة واحدة، بل عبر مسارات طويلة تتداخل فيها عوامل الدين، والثقافة، والاقتصاد، والبنية الاجتماعية. وكنا نوضح أن المرأة السعودية ليست ذلك النموذج الساكن الذي تُقدّمه بعض وسائل الإعلام، بل هي فاعل أساسي في التعليم والعمل والأسرة، وأن كثيرًا من الصور المتداولة تُبنى على حالات استثنائية أو سرديات انتقائية لا تعكس الواقع المركّب.

وكان لوجود عدد كبير من الطالبات السعوديات أثر بالغ في تصحيح الصورة، ربما أكثر من أي خطاب نظري. فالحضور اليومي للمرأة السعودية في القاعات الدراسية، ومشاركتها الفاعلة في النقاش، وتفوقها الأكاديمي، واستقلالها في المعيشة والتنقل داخل الولايات المتحدة، كل ذلك كان رسالة عملية. لم تكن المرأة السعودية موضوعًا للنقاش فحسب، بل كانت جزءًا من النقاش ذاته، وصوتًا حيًا يكسر القوالب الجاهزة دون حاجة إلى تبرير أو دفاع. ومع مرور الوقت، بدأت ألاحظ أن الابتعاث السعودي نفسه تحوّل إلى قوة ناعمة غير مقصودة. آلاف الطلاب والطالبات السعوديين الذين انتشروا في الجامعات الأمريكية لم يحملوا معهم شهاداتهم فقط، بل حملوا تجاربهم اليومية، وحديثهم العفوي، وتفاعلهم الإنساني. هذا الاحتكاك المباشر كان كفيلًا بإعادة تشكيل كثير من التصورات لدى الأساتذة والطلاب الأمريكيين، لأن الصورة التي تُبنى عبر المعايشة أقوى بكثير من تلك التي تصنعها الشاشات.

وحين تسارعت التغييرات الاجتماعية في المملكة لاحقًا، وعلى رأسها تمكين المرأة من القيادة، لم يكن ذلك مفاجئًا لنا نحن الذين كنا نعيش تفاصيل التحول من الداخل، لكنه كان كاشفًا لكثير من الأمريكيين الذين أدركوا أن المجتمع الذي صوّروه لسنوات بوصفه جامدًا كان في الواقع مجتمعًا يتحرك، ولكن وفق إيقاعه الخاص. و تكشف هذه المشاهدة أن قضايا المرأة السعودية في الوعي الأمريكي كانت ساحة تداخل بين المعرفة والإعلام والانطباع الشخصي. غير أن الحضور السعودي الكثيف في الجامعات، ومشاركة الطلاب والطالبات بوعي وثقة، نقل هذه القضايا من دائرة الأحكام المسبقة إلى فضاء الحوار المعرفي. وهكذا، لم يكن الطالب السعودي مجرد متلقٍّ للمعرفة، بل أصبح دون تخطيط مسبق وسيطًا ثقافيًا، وشاهدًا حيًا، وجزءًا من قوة ناعمة لا تُقاس بالأرقام، بل بالأثر العميق والبطيء الذي تتركه التجربة الإنسانية حين تُعاش من الداخل.

المشاهدة العاشرة: الصحافة والقراءة.

المشاهدة العاشرة: الصحافة والقراءة

منـذ أيامـي الأولى خـارج الوطـن، شـعرت أن الصحافـة يمكـن أن تكـون أكـثر مـن مجـرد مصـدر خـبر؛ يمكـن أن تكـون أداة تعلّـم، وتمرينًـا لغويًـا، ومدخـلًا لفهـم المجتمـع مـن الداخـل. لذلـك حاولـت بوعـي وإصرار أن أفـرض عـلى نفسـي القـراءة اليوميـة، رغـم أن لغتـي الإنجليزيـة في تلـك المرحلـة لم تكـن مهيـأة بعـد للفهـم السـلس أو الاسـتيعاب الكامـل. كانـت القـراءة بالنسـبة لي فعـل مقاومـة صامتـة، مقاومـة للكسـل اللغـوي، وللاكتفـاء بالدائـرة العربيـة الضيقـة، ومحاولـة مبكـرة لبنـاء علاقـة مـع اللغـة مـن بوابـة الحيـاة اليوميـة لا مـن كتـب القواعـد وحدهـا. في بولمـان، بـدأت المحـاولات خجولـة وبسـيطة. كنـت أطلـع عـلى الجريـدة الأسـبوعية للجامعـة، وبعـض النـشرات المحليـة، وأتصفـح مواقـع إخباريـة محـدودة، ألتقـط منهـا العناويـن وأحـاول فهـم السـياق العام، حتـى لـو ضاعـت التفاصيـل الدقيقـة. لم يكـن الهـدف الإحاطـة بمـا يجـري في العـالم، بـل كـسر حاجـز الخـوف مـن النـص الإنجليـزي، وتدريـب العـين والعقـل عـلى الخطـاب الصحفـي، الـذي يختلـف في بنائـه ومفرداتـه عـن اللغـة الأكاديميـة أو التعليميـة.



عدد من إصدارات الصحف الجامعية الصادرة عن الجامعات التي درستُ بها؛ إذ بدأت صحيفة جامعة إنديانا عام 1865م، بينما بدأت صحيفة جامعة ولاية واشنطن عام 1892م.

WSU Libraries Digital Collections

ومع انتقالي إلى سياتل، تغيّرت علاقتي بالقراءة جذريًا. هناك تحوّلت القراءة من محاولة متقطعة إلى عادة يومية منتظمة. اشتركت في صحيفة(Seattle Times)، وكانت تصل كل صباح إلى المنزل الذي كنت أسكن فيه مع عائلة أمريكية. طريقة التوصيل نفسها كانت جزءًا من المشهد الثقافي؛ تُرمى الجريدة في الحديقة الأمامية، وفي أيام المطر وهي كثيرة في سياتل تُلف داخل كيس بلاستيكي لحمايتها من البلل. تفاصيل صغيرة، لكنها تعكس علاقة طبيعية ومتجذرة بين الناس والصحافة. كنت أحمل الجريدة معي في طريق الذهاب إلى معهد اللغة، وأقرأها في الحافلة. كانت رحلة الباص تستغرق ما بين سبعين إلى ثمانين دقيقة، وهو وقت كافٍ لتصفّح الجريدة بهدوء نسبي. هكذا تحوّل وقت المواصلات إلى مساحة قراءة ثابتة، أسهمت بوضوح في تحسين لغتي، وفي الوقت نفسه منحتني إحساسًا بالمزاج العام للمدينة، بما يشغل الناس، وما يُناقش، وما يُهمَّش. ولا أنسى أن نسخ يوم الأحد كانت دائمًا مختلفة؛ أكثر سماكة، وأكثر امتلاءً بالإعلانات والكوبونات. كثير من الأمريكيين كانوا يحرصون على هذه النسخ تحديدًا، لا من أجل القراءة فقط، بل من أجل القسائم التي تتيح الحصول الخصومات والعروض من المتاجر والمواقع الالكترونية.

ومع انتقالي إلى مرحلة الدراسات العليا، تغيّر نمط القراءة مرة أخرى. لم تعد الصحيفة اليومية وحدها كافية، فاتجهت أكثر إلى المجلات. اشتركت في(National Geographic)، لما تقدمه من محتوى بصري ومعرفي عميق، يجمع بين العلم والتاريخ والثقافة. كما كنت أتابع مجلات أخرى مثل(Time)، التي تمزج السياسة بالتحليل الاجتماعي، وتقدّم قراءة أوسع للأحداث. ووفي الوقت نفسه، أصبح لدي اشتراك إلكتروني في صحيفة (Washington Post)، حصلت عليه ضمن مزايا اشتراك أمازون، الذي كنت أستخدمه باستمرار. هذا الانتقال من الورقي إلى الرقمي لم يكن قرارًا واعيًا بقدر ما كان انعكاسًا لتحول أوسع في صناعة الإعلام. كنت أعايش هذا التحول يوميًا، من خلال الهاتف والكمبيوتر، وأدرك أن الصحافة لم تعد حبيسة الورق، بل صارت حاضرة في كل لحظة، وبإيقاع أسرع مما اعتدناه. إلى جانب الصحف الكبرى، كانت هناك صحف محلية صغيرة، وأخرى جامعية،

تـؤدي دورًا مهـمًا داخـل الحـرم الجامعـي. بعـض الجامعـات كانـت تصـدر أكـثر مـن صحيفـة، بإخـراج بسـيط وإمكانـات محـدودة، لكنهـا كانـت تعكـس قضايـا الطـلاب، ونقاشـاتهم، وهمومهـم اليوميـة. غـير أننـي لاحظـت في سـنواتي الأخـيرة تراجـع هـذه الصحـف بشـكل واضـح، مـع صعـود وسـائل التواصـل الاجتماعـي، وتحـول الجمهـور نحـو المنصـات السريعـة، التـي تفضّـل الخـبر المختـصر والتفاعـل اللحظـي عـلى التحليـل المتـأني.

كـما كنـت أحـرص متـى مـا سـنحت الفرصـة عـلى الاطـلاع عـلى الصحـف العربيـة الصـادرة في الولايـات المتحـدة. وهـي صحـف قليلـة، محـدودة الانتشـار، وغالبًـا مـا تقـوم عـلى جهـود فرديـة أكـثر مـن كونهـا مؤسسـات إعلاميـة متكاملـة. لكنهـا كانـت تمنحنـي نافـذة لفهـم همـوم الجاليـات العربيـة، وتسـاؤلاتها عـن الهويـة، والاندمـاج، والعلاقـة مـع المجتمـع الأمريـكي. كنـت أقـرأ فيهـا محاولـة مسـتمرة للإجابـة عـن سـؤال ضمنـي: كيـف يعيـش العـرب في المهجـر، وكيـف يـروون قصتهـم بأصواتهـم؟ ومـع ذلـك، كان واضحًـا أن زمـن هـذه الصحـف الورقيـة العربيـة يمـر بمرحلـة أفـول أو تحـوّل قـاسٍ، تحـت ضغـط وسـائل التواصـل الاجتماعـي، التـي سـحبت البسـاط مـن كثـير مـن المنابـر التقليديـة، وغـيّرت طريقـة إنتـاج الخـبر وتلقيـه وتحليلـه.

المشاهدة الحادية عشرة: التنوع الثقافي لزملاء الدارسة.

المشاهدة الحادية عشرة: التنوع الثقافي لزملاء الدارسة

اتسمت تجربتي الدراسية في الولايات المتحدة بتغيّرٍ متدرّج في تركيبة الزملاء والبيئة الطلابية من مرحلة إلى أخرى، وكان هذا التغيّر بحد ذاته مرآة دقيقة لطبيعة كل مرحلة أكاديمية، وللهدف الذي صُمّم البرنامج من أجله، وللفئات التي يستقطبها. لم يكن الأمر مجرد اختلاف في الجنسيات، بل تحوّلًا أعمق في الخلفيات المهنية، وفي مستوى النضج الأكاديمي، وفي طريقة التفاعل داخل القاعة الدراسية وخارجها. ففي مرحلة اللغة في بولمان، كان الحضور السعودي طاغيًا إلى حدٍّ لافت. يمكن القول إن الغالبية الساحقة من طلاب المعهد كانوا سعوديين، في سياقٍ ارتبط بتوسّع برامج الابتعاث الحكومية في تلك السنوات. معظم هؤلاء كانوا مرشحين لدراسة البكالوريوس، مع عدد أقل من طلاب الدراسات العليا، وقلة محدودة من المبتعثين المرتبطين بوظائف حكومية، كالمعيدين في الجامعات. هذا التركز العالي خلق بيئة اجتماعية ولغوية مريحة من حيث التواصل اليومي، لكنها لم تكن محفّزة بالقدر الكافي على الانغماس الكامل في اللغة الإنجليزية، إذ ظلّت العربية هي الخيار الأسهل والأسرع، وهو ما شكّل تحديًا حقيقيًا لمن كان يسعى إلى تطوير لغته عبر الاحتكاك اليومي القسري.

عند الانتقال إلى سياتل، تغيّر المشهد بوضوح. هناك، اتسعت دائرة التنوع، وبرز حضور طلاب من شرق آسيا، وأمريكا الجنوبية، وأوروبا، إلى جانب السعوديين الذين ظلوا يشكّلون نسبة معتبرة، لكنها لم تعد مهيمنة كما في بولمان. هذا التنوع الثقافي انعكس مباشرة على طبيعة التفاعل داخل الصف وخارجه، وفتح مساحات أوسع للتعارف، وكسر شيئًا من العزلة الثقافية التي يفرضها التجانس المفرط، وجعل اللغة الإنجليزية أداة مشتركة لا خيارًا ثانويًا. ومع بدء مرحلة الماجستير في كليفلاند، وتحديدًا في تخصص الإدارة التربوية، وجدت نفسي في بيئة مختلفة تمامًا. لم يكن هناك أي طالب سعودي يشاركني البرنامج نفسه، على الرغم من وجود طلاب سعوديين في أقسام أخرى تشترك في المباني والمرافق، كالمناهج، والتربية الخاصة، وتقنيات التعلم. أما برنامج الإدارة التربوية فكان يضم

في معظمه طلابًا أمريكيين، من البيض والسود، مع غلبة واضحة للبيض. اللافت أن معظمهم لم يكونوا طلابًا متفرغين بالمعنى التقليدي، بل مهنيين يعملون بالفعل في الميدان التعليمي: معلمون، مشرفون، إداريون، وبعضهم يشغل مناصب قيادية متقدمة. كان القاسم المشترك بينهم هو الطموح الواضح لتولي إدارة المدارس، وهو طموح تفرضه طبيعة النظام التعليمي في ولاية أوهايو، حيث يُشترط للحصول على منصب مدير مدرسة امتلاك درجة الماجستير في الإدارة التربوية. في تلك المرحلة أيضًا، كان هناك حضور محدود لطلاب من الجنسية التركية، يعملون في مدارس مستقلة بولاية أوهايو ، وهو حضور لفت انتباهي مبكرًا، ودفعني لاحقًا إلى الكتابة عنه ضمن تحليلي لظاهرة المدارس المستقلة في الولايات المتحدة. كانت تلك التجربة تكشف كيف يمكن لجماعات مهاجرة منظمة أن تجد لها موطئ قدم مهنيًا مؤثرًا داخل النظام التعليمي الأمريكي (للتوسع اقراء على كتابي إدارة المناطق التعليمية في الولايات المتحدة من منضور عربي).

أما مرحلة الدكتوراه، فقد مثّلت انتقالًا نوعيًا آخر في تركيبة الزملاء. لم يكن معي في الدفعة أي طالب أو طالبة سعودية، باستثناء طالبة واحدة سبقني في البرنامج. كان معظم الزملاء أمريكيين، مع وجود طالبة واحدة من أوروبا الشرقية. والأهم من ذلك أن الخلفية المهنية للطلاب كانت أكثر تجانسًا وارتفاعًا؛ فغالبيتهم يشغلون مناصب قيادية فعلية في مديريات التعليم بولاية إنديانا، وكثير منهم يعملون نوابًا لمديري مناطق تعليمية واثنين من أعضاء هيئة التدريس في جامعة بأنديانا.و من حيث التوزيع العرقي، شكّل البيض النسبة الكبرى، مع وجود أقل للطلاب السود، وحضور نادر جدًا لطلاب من أصول لاتينية.

أما أعضاء هيئة التدريس بدورهم عكسوا هذا النمط؛ إذ غلب عليهم البيض، مع وجود محدود جدًا لأساتذة من خلفيات عرقية أخرى. كما مرّت عليّ تجربة إنسانية واجتماعية مختلفة تمثلت في وجود أستاذة في الإحصاء كانت متحولة جنسيًا، وهي تجربة وضعت الطالب القادم من بيئات محافظة أمام واقع

اجتماعـي وثقـافي متعـدّد، يفـرض عليـه الفهـم والتحليـل قبـل إصـدار أي حكـم، ويؤكـد أن الجامعـة الأمريكيـة ليسـت مجـرد فضـاء معـرفي، بـل سـاحة اختبـار يومـي لمفاهيـم التنـوع والاختـلاف. وتكشـف هـذه المشـاهد المتتابعـة أن التنـوّع الطـلابي في الجامعـات الأمريكيـة ليـس حالـة ثابتـة، بـل يتغـيّر بتغـيّر المرحلـة الأكاديميـة، وطبيعـة التخصـص، والهـدف المهنـي للبرنامـج. فكلـما ارتفـع المسـتوى الأكاديمـي، تقلّـص الحضـور الـدولي، وازداد الطابـع المحـلي المهنـي، لا سـيما في برامـج القيـادة والإدارة التعليميـة، التـي تسـتقطب أساسًـا ممارسـين ميدانيـين يسـعون إلى تطويـر مسـارهم الوظيفـي. وهكـذا، مـن بولمـان إلى سـياتل، ومـن كليفلانـد إلى إنديانـا، انتقلـت بـين بيئـات طلابيـة متباينـة: مـن كثافـة سـعودية عاليـة، إلى تنـوّع دولي، إلى تخصـص مهنـي محـلي، ثـم إلى نخبـة قياديـة أكاديميـة. وكان هـذا الانتقـال في حـد ذاتـه تجربـة تعليميـة موازيـة للدراسـة، علّمتنـي أن الجامعـة ليسـت مجـرد قاعـات ومحـاضرات، بـل مـرآة مصغّـرة للمجتمـع الأمريـكي، بتعقيداتـه، وتسلسـله المهنـي، وتنوّعـه الاجتماعـي والثقـافي.

المشاهدة الثانية عشرة: البنية التحتية والعمارة.

المشاهدة الثانية عشرة: البنية التحتية والعمارة

من خلال سنوات الإقامة والمعايشة في الولايات المتحدة، تشكّلت لديّ ملاحظة ثابتة يصعب تجاهلها، وهي أن البنية التحتية والعمارة الأمريكية تحمل مفارقة لافتة: قوة اقتصادية هائلة، تقابلها واجهة عمرانية تبدو في كثير من تفاصيلها قديمة نسبيًا. لم يكن هذا الانطباع وليد زيارة عابرة، بل نتاج تنقل طويل بين ولايات ومدن مختلفة، كبرى وصغيرة، جامعية وصناعية، مركزية وهامشية.فمعظم الطرق، والجسور، والمباني العامة، وحتى الأحياء السكنية تعود في تصميمها وإنشائها إلى عقود سابقة، تمتد في كثير من الأحيان إلى ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، بل إن بعضها أقدم من ذلك بكثير. هذه البنية لا يمكن وصفها بالسيئة أو المتداعية؛ فهي في العموم تؤدي وظائفها بكفاءة مقبولة، وتستمر في الخدمة دون انقطاع يُذكر، لكنها في الوقت ذاته لا تعكس حداثة معمارية، ولا تمنح الزائر إحساسًا بالتجديد المستمر أو الطموح العمراني المتسارع.

ويتجلى هذا الأمر بوضوح في شبكة الطرق ووسائل النقل. فالاعتماد شبه الكامل على السيارة الخاصة يفرض نفسه بقوة، ويجعل التنقل خاصة بين المدن والولايات مرهقًا لمن لا يملك مركبة. صحيح أن بعض المدن الكبرى تمتلك شبكات نقل عام، كالمترو في نيويورك وشيكاغو وواشنطن العاصمة، أو القطارات الخفيفة في سياتل وبورتلاند، إلا أن هذه الشبكات مقارنة بنظيراتها الأوروبية محدودة من حيث الشمول والتكامل، ولا تشكّل بديلًا حقيقيًا وسهلًا للاستخدام اليومي في معظم المناطق. أما الحافلات، فهي متوفرة على نطاق واسع، لكنها غالبًا غير جاذبة، وتستغرق وقتًا طويلًا، ما يعزز ثقافة السيارة بوصفها الخيار شبه الوحيد. ويمتد هذا الانطباع إلى المطارات والمرافق العامة. فبعض المطارات الكبرى، رغم أهميتها العالمية وكثافة الحركة فيها، تبدو قديمة في تصميمها وتجهيزاتها. لا يشعر المسافر فيها بتجربة معمارية حديثة أو مبهرة كما هو الحال في مطارات آسيا أو الخليج، ومع ذلك فهي تعمل بكفاءة تشغيلية عالية، وتستوعب أعدادًا هائلة من المسافرين يوميًا، في تجسيد واضح لفلسفة أمريكية تميل إلى الوظيفة قبل الشكل.

وسط هذا المشهد، يبرز استثناء لافت يصعب تجاهله: الملاعب الرياضية. هنا فقط، تتغير الصورة بالكامل. فالملاعب الحديثة سواء الجامعية أو الاحترافية متقدمة هندسيًا، ضخمة في سعتها، ومتكاملة في خدماتها. بعضها مغلق بالكامل، ويضم مرافق ترفيهية وتجارية وتقنية متطورة، تجعل تجربة الحضور حدثًا متكاملًا يتجاوز مجرد مشاهدة المباراة. في هذه المنشآت، يظهر بوضوح أين تُوجَّه الاستثمارات الكبرى، وكأن الرياضة تمثل أحد المجالات القليلة التي تُظهر فيها الولايات المتحدة أحدث ما لديها من قدرات معمارية وهندسية. ومن الملاحظ كذلك وجود تشابه عمراني كبير بين الولايات. فأنماط البناء، والمراكز التجارية، والأحياء السكنية تتكرر بشكل لافت، ما يجعل الانتقال من ولاية إلى أخرى أقل إدهاشًا من الناحية البصرية. غير أن هذا التشابه لا يخلو من استثناءات ثقافية محدودة، أبرزها ولاية لويزيانا، حيث تبرز العمارة المتأثرة بالخلفية الفرنسية، وتنعكس على شكل المباني، وأسلوب التخطيط، وحتى المزاج الثقافي العام، ما يمنح الولاية هوية مختلفة داخل المشهد الأمريكي العام.

أما في المناطق الريفية والهامشية، فيظهر بطء التحديث بشكل أوضح. المباني قديمة، والاستثمار في البنية التحتية محدود، والخدمات أقل تنوعًا مقارنة بالمدن الكبرى. هذا التفاوت بين المركز والهامش لا يبدو عارضًا، بل نتيجة تراكمات تاريخية وسياسات طويلة الأمد، جعلت التحديث العمراني يتم وفق أولويات اقتصادية صارمة، لا وفق رؤية جمالية شاملة.وعند قراءة هذا المشهد قراءة تحليلية، يمكن فهم هذا "القدم" النسبي في البنية التحتية الأمريكية من خلال عدة عوامل متداخلة: التراكم التاريخي لمدن بُنيت قبل عقود طويلة، الكلفة العالية للتحديث الشامل على مستوى قاري واسع، وتقديم الكفاءة التشغيلية على الحداثة الشكلية. في المقابل، تبدو دول أحدث عمرانيًا كدول الخليج أكثر قدرة على إظهار حداثة معمارية لافتة، بحكم حداثة النشأة، ووضوح الرؤية التخطيطية، وتوفر الموارد.

المشاهدة الثالثة عشرة: الطقس والفصول.

المشاهدة الثالثة عشرة: الطقس والفصول

خلال سنوات إقامتي الدراسية في الولايات المتحدة، كان الطقس أحد أكثر العناصر حضورًا في تفاصيل الحياة اليومية، ليس بوصفه خلفية طبيعية محايدة، بل عاملًا مؤثرًا في نمط العيش، والتنقل، والدراسة، وحتى المزاج العام. ما يميز التجربة الأمريكية من هذه الزاوية هو وجود فصول أربعة حقيقية، واضحة المعالم، تتبدل فيها الطبيعة بصرامة وانتظام، على خلاف ما اعتدناه في بيئات يغلب عليها الاستقرار المناخي النسبي. ففي المدن التي عشتُ فيها، كان الشتاء هو الفصل الأكثر حضورًا وتأثيرًا. في بوملمان تحديدًا، بدا الشتاء طويلًا وثقيلًا؛ يبدأ مبكرًا ويغادر متأخرًا. تساقط الثلوج يمتد من نوفمبر إلى مارس، وتتراكم بكثافة تغطي الطرق والمسارات ومداخل المباني. ولأن المدينة تقع على هضبة، فإن الصعود والهبوط يزيدان من تحديات التنقل، ويجعلان الانزلاق احتمالًا يوميًا. ومع ذلك، كانت إدارة المدينة تتعامل مع هذه الظروف بقدر عالٍ من التنظيم: صيانة متواصلة للطرق، مواد خاصة تُرش على الجليد، وإيقاع حياة يتكيف تلقائيًا مع الطقس. البرد هناك قد يهبط إلى ما دون الصفر بكثير، وتصل الحرارة في بعض الأيام إلى ناقص اثنتي عشرة أو ست عشرة درجة مئوية، وهو برد قاسٍ لا يُستهان به، لكنه يصبح محتملًا مع الاستعداد الصحيح: معاطف عازلة للماء تُلبس فوق الملابس، قفازات، قبعات، وأحذية شتوية مصممة للثلج والجليد.

في كليفلاند وولاية إنديانا، يتخذ الشتاء طابعًا مختلفًا قليلًا. البرد حاضر، والثلوج متوقعة، لكن الرطوبة الأعلى تخفف نسبيًا من حدّة الإحساس بالبرد الجاف القاسي. هنا أيضًا تتكرر العواصف الثلجية التي قد تؤدي إلى تأخير الدراسة أو إغلاق المدارس ليوم أو يومين، وهو إجراء مألوف يحدث مرتين أو ثلاثًا في العام، ويعكس فلسفة تعليمية تضع السلامة قبل الانتظام الشكلي. التعايش مع الشتاء في هذه المناطق لا يقوم على المقاومة، بل على التنظيم: ملابس مناسبة، جداول مرنة، واحترام التحذيرات.



أمـا سـياتل، فقصتهـا المناخيـة مختلفـة. الثلـوج نـادرة، لكـن المطـر دائـم. الـبرد هنـا رطـب، والإحسـاس بـه مختلـف؛ لا يحتـاج إلى عـزل حـراري شـديد بقـدر مـا يحتـاج إلى ملابـس مقاومـة للـماء. المطـر يفـرض إيقاعًـا خاصًـا للحيـاة، ويصنـع علاقـة يوميـة مـع الطقـس؛ مظـلات، معاطـف خفيفـة، وأحذيـة تتحمـل البلـل. وفي حـالات نـادرة، حـين تهبـط موجـة بـرد مفاجئـة أو تتسـاقط ثلـوج خفيفـة، قـد تتعطـل الدراسـة ليـوم واحـد، لا أكثر.في البدايـات، كان كل ذلـك صدمـة مناخيـة حقيقيـة. الانتقـال مـن بيئـة دافئـة إلى شـتاء طويـل قـارس يربـك الجسـد والعقـل معًـا. لكـن مـع الوقـت، يتحـول الأمـر إلى روتـين مـدروس: متابعـة نـشرات الطقـس، التخطيـط المسـبق للتنقـل، اختيـار الملابـس بعنايـة، وتعلّـم قـراءة الإشـارات الصغـيرة للطبيعـة. ومـع توفـر الأدوات المناسـبة، يصبـح الشـتاء جـزءًا مـن اليوميـات، لا عائقًـا أمامهـا.

المشاهدة الرابعة عشرة: التسوّق الإلكتروني.

المشاهدة الرابعة عشرة: التسوّق الإلكتروني

خلال سنوات إقامتي في الولايات المتحدة، أصبح التسوّق الإلكتروني جزءًا طبيعيًا من تفاصيل الحياة اليومية، لا بوصفه خيارًا إضافيًا، بل باعتباره أسلوبًا سائدًا للشراء والاستهلاك. لم أكن أتعامل معه في البداية بوعي اقتصادي أو اجتماعي، بل بدافع الحاجة والراحة، لكن مع تكرار التجربة، بدأت تتكشف لي أبعاده الأعمق، وتأثيره الواسع في المجتمع والسوق معًا. كان لافتًا أن التوصيل السريع لم يكن استثناءً، بل قاعدة شبه ثابتة؛ فالوصول خلال يوم واحد وأحيانًا في اليوم نفسه أمر مألوف في كثير من المدن التي سكنتُ فيها. عملية الشراء نفسها كانت شديدة السلاسة: تختار المنتج، تدفع خلال ثوانٍ، تصلك إشعارات دقيقة عن الشحن، ثم يُسلَّم الطرد في الوقت المحدد. هذا الانسياب في التجربة يعكس نضجًا تقنيًا ولوجستيًا متقدمًا، لا يشعر فيه المستهلك بأي احتكاك أو تعقيد.
كنت أعتمد كثيرًا على أمازون، التي لم تكن مجرد متجر إلكتروني، بل أشبه بسوق شامل يوفّر كل ما قد يحتاجه الفرد تقريبًا: أدوات كهربائية، أثاث، كتب، أدوات مطبخ، بل وحتى بعض المواد الغذائية. ومع مرور الوقت، أصبح الشراء عبر الإنترنت الخيار الأول لا البديل، خاصة مع سهولة المقارنة بين الأسعار، وتوفّر التقييمات، وسرعة الوصول. ومن المواقف التي رسخت في ذاكرتي، حادثة بسيطة لكنها شديدة الدلالة. كنت في بولمان حين طلبت جهاز ميكرويف عبر الإنترنت، ثم اضطررت للسفر خارج المدينة لمدة أسبوع. وصلني إشعار بأن الطرد تم تسليمه، وعندما عدت، وجدته أمام باب الشقة كما هو، دون أن يُنقل أو يُمس، رغم وضوح حجمه ومحتواه. لم يكن هذا استثناءً نادرًا؛ بل كان مشهدًا يتكرر كثيرًا في المدن الجامعية والصغيرة، حيث تُترك الطرود أمام الأبواب لساعات أو أيام، في ظل مستوى عالٍ من الأمان المجتمعي واحترام الملكية الخاصة.
هذا الشعور بالأمان كان جزءًا أساسيًا في نجاح منظومة التسوّق الإلكتروني. فالشركات تعتمد على هذا السلوك المجتمعي، كما يعتمد الأفراد على موثوقية الشركات. وتكمل هذه الحلقة شركات التوصيل والبريد، مثل (UPS)والبريد الأمريكي، التي كانت تعمل بكفاءة وانتظام لافتين. كنا نعتمد على البريد في كل شيء تقريبًا: كتب، مستلزمات منزلية، أدوات طبخ، وحتى مواد غذائية عربية تُطلب من متاجر إلكترونية متخصصة، وغالبًا ما تصل الشحنات بسرعة، وبتكلفة

معقولة، ودون تعقيدات تُذكر. ومع الوقت، لاحظت أن الأسعار عبر الإنترنت في كثير من الحالات أقل من المتاجر التقليدية، ما جعل التسوّق الإلكتروني خيارًا اقتصاديًا أيضًا، لا مجرد خيار مريح. هذا الفارق السعري، مقترنًا بعامل السرعة، أسهم في تعزيز الاعتماد المتزايد على المنصات الرقمية، خاصة لدى الطلاب والأسر محدودة الوقت.

لكن خلف هذه الكفاءة المبهرة، كان هناك أثر جانبي صامت لا يظهر مباشرة في تجربة المستهلك. فقد لاحظت تدريجيًا تراجع المتاجر الصغيرة، خصوصًا محال بيع الكتب والمتاجر المتخصصة التي كانت تمثل جزءًا من هوية المدن والأحياء. كثير من هذه المحال أُغلق، أو تقلّص نشاطه، غير قادر على مجاراة المنافسة السعرية واللوجستية غير المتكافئة مع الشركات العملاقة. هذا التحول لم يكن اقتصاديًا فحسب، بل اجتماعيًا أيضًا. إذ أدى إلى تركّز متزايد للثروة في يد عدد محدود من الشركات الكبرى، وأسهم في إضعاف النسيج الاقتصادي المحلي، الذي كانت تشكّله المتاجر العائلية والمساحات التجارية الصغيرة. صحيح أن المستهلك ربح السرعة والسعر والتنوع، لكن المدينة خسرت بعضًا من روحها التجارية، ومن التفاعل الإنساني الذي كانت توفره تلك المتاجر.

المشاهدة الخامسة عشرة: الكبار السن والعمل.

خلال معايشتي للحياة اليومية في الولايات المتحدة، كان حضور كبار السن في سوق العمل مشهدًا يتكرر بهدوء، دون ضجيج أو لفت انتباه إعلامي، لكنه يترك أثرًا عميقًا لدى من يتأمله. لم يكن الأمر محصورًا في حالات نادرة أو استثنائية، بل بدا وكأنه جزء طبيعي من المشهد الاجتماعي؛ ترى رجلًا مسنًا يعمل في متجر بقالة، أو امرأة في السبعين تقف خلف صندوق محاسبة، أو موظفًا كبير السن يؤدي خدمة بسيطة بابتسامة روتينية اعتادتها المكان. في البداية، يتبادر إلى الذهن تفسير مباشر: الحاجة المادية. ولا شك أن هذا التفسير حاضر في بعض الحالات، فتكاليف المعيشة، خصوصًا الرعاية الصحية والسكن، تفرض ضغوطًا حقيقية على شريحة من المتقاعدين. حين يكون الدخل التقاعدي غير كافٍ، يصبح العمل حتى في سن متقدمة وسيلة لسد فجوة مالية لا يمكن تجاهلها. هذا الجانب من الصورة يثير أسئلة مشروعة حول كفاية أنظمة التقاعد، وحدود الأمان الاجتماعي، وجودة الحياة في مرحلة يُفترض أن تكون أقل توترًا وأكثر استقرارًا. لكن مع تكرار المشاهدة، ومع الحديث المباشر مع بعض هؤلاء، بدأت

تتضح صورة أخرى أقل قسوة، وربما أكثر عمقًا. فقد اكتشفت أن عددًا غير قليل من كبار السن لا يعملون بدافع الحاجة، بل بدافع مختلف تمامًا: الحاجة إلى المعنى. كثيرون منهم يمتلكون دخلًا تقاعديًا مقبولًا، لكنهم اختاروا الاستمرار في العمل لساعات محدودة، أو في وظائف خفيفة، فقط كي لا ينقطع خيطهم اليومي مع العالم.

التقاعد المفاجئ، كما بدا لي، قد يكون صدمة نفسية غير معلنة. فالإنسان الذي اعتاد لعقود أن يستيقظ على التزام، وأن يشعر بأنه مطلوب ومفيد، يجد نفسه فجأة أمام فراغ طويل. هذا الفراغ لا يُقاس بعدد الساعات، بل بثقله النفسي؛ إذ يتسلل الإحساس بالتهميش، وتضعف شبكة العلاقات، ويضيق نطاق التفاعل الاجتماعي. ومع الوقت، قد ينعكس ذلك على الصحة النفسية والجسدية معًا.

في هذا السياق، يصبح العمل حتى وإن كان بسيطًا أو محدود الأجر آلية توازن لا عبئًا إضافيًا. يمنح اليوم شكلًا، ويعيد تنظيم الوقت، ويخلق سببًا للخروج من المنزل، والتحدث مع الآخرين، والشعور بأن المرء ما زال جزءًا حيًا من المجتمع.

وقد سمعت من بعض كبار السن عبارات صريحة في هذا المعنى: أنهم يعملون كي لا يبقوا وحدهم، أو كي لا يشعروا أن أيامهم متشابهة بلا هدف.هذا الفهم جعلني أقرأ المشهد بزاوية مختلفة. فالعمل هنا ليس مجرد تبادل اقتصادي، بل علاقة نفسية واجتماعية تحفظ للإنسان إحساسه بالجدوى. وربما يفسر ذلك قبول المجتمع الأمريكي إلى حدٍّ ما بفكرة العمل في سن متقدمة، بل وتوفير فرص مرنة تسمح لكبار السن بالمشاركة دون إنهاك.

المشاهدة السادسة عشرة : المدارس في الولايات .

المشاهدة السادسة عشرة : المدارس في الولايات

خلال سنوات دراستي وتكويني الأكاديمي في الولايات المتحدة، أتيحت لي فرصة نادرة نسبيًا لزيارة عدد كبير من المدارس الأمريكية في سياقات جغرافية واجتماعية مختلفة. لم تكن هذه الزيارات عابرة أو سياحية، بل جاءت في إطار أكاديمي ومهني، شمل مدارس في سياتل، وكليفلاند، ومناطق متعددة في ولاية أوهايو، إضافة إلى ولاية إنديانا. بعض هذه الزيارات كان ليوم واحد، وبعضها امتد لفترة أطول، وصلت في إحدى التجارب إلى قرابة أسبوعين داخل مدرسة مستقلة (Charter School)، كما شاركت في مدرسة تقع في حي يقطنه الأمريكيون من أصول إفريقية، وهو ما أتاح لي قراءة المشهد المدرسي من زوايا متعددة وهذا من أسباب تأليفي لعدد من الكتب ونشري عدد من الدراسات عن الحالة التعليمية في الولايات المتحدة. أول ما يلفت النظر عند الحديث عن المدارس الأمريكية هو التفاوت الواضح بين مدرسة وأخرى، تفاوت لا يمكن فصله عن الوضع الاقتصادي والاجتماعي للحي. ففي مدن مثل كليفلاند، التي تعاني تاريخيًا من تراجع اقتصادي، بدت بعض المدارس الواقعة في الأحياء الفقيرة خصوصًا تلك التي يكثر فيها الأمريكيون من أصول إفريقية محدودة الإمكانات، متواضعة المرافق، وتعكس بصورة مباشرة التحديات الاجتماعية التي تحيط بها. المدرسة هنا لا تعيش في فراغ؛ بل تحمل على جدرانها وأجوائها أثر الفقر، والتفكك الأسري، وضغوط الحياة اليومية.

في المقابل، كانت المدارس الواقعة في الضواحي التي تسكنها الطبقة الوسطى والعليا أكثر تطورًا من حيث المباني، والتجهيزات، والأنشطة، والبرامج الداعمة. يظهر هنا بوضوح أن الجغرافيا تصنع الفارق التعليمي، وأن جودة المدرسة في كثير من الأحيان تبدأ من الرمز البريدي الذي تقع فيه. أما في إنديانا، وبحكم صغر المدن نسبيًا وانخفاض الكثافة السكانية مقارنة بالمدن الصناعية الكبرى، فقد لاحظت أن جودة المدارس تميل إلى الاستقرار والاتساق. أعداد الطلاب أقل، والمجتمع المحلي أكثر ترابطًا، ما ينعكس إيجابًا على البيئة المدرسية عمومًا، ويخفف من

حـدة الفـوارق التـي تظهـر بوضـوح في المـدن الكبـيرة. و مـن حيـث المرافـق المدرسـية، يمكـن القـول إن معظـم المـدارس الأمريكيـة حتـى المتواضعـة منهـا تمتلـك حـدًا أدنى جيـدًا مـن التجهيـزات. الصـالات الرياضيـة، والملاعـب، وقاعـات الأنشـطة، والمرافـق الداعمـة للتعلـم، تشـكل جـزءًا أساسـيًا مـن بنيـة المدرسـة. وقـد لاحظـت أن كثـيرًا مـن الطـلاب يرتبطـون بالمدرسـة عاطفيًـا، ويفضّلـون البقـاء فيهـا بعـد انتهـاء اليـوم الـدراسي للمشـاركة في الأنشـطة الرياضيـة أو الفنيـة أو الاجتماعيـة، وهـو مـا يمنـح المدرسـة دورًا يتجـاوز التعليـم الأكاديمـي إلى الاحتـواء الاجتماعـي.

أمـا المعلمـون، فقـد بـدت عليهـم ملامـح العـبء الوظيفـي المرتفـع. التدريـس ليـس مهمتهـم الوحيـدة؛ بـل يتولـون التخطيـط، والتقويـم، والمتابعـة الفرديـة، والتعامـل مـع خلفيـات طلابيـة شـديدة التنـوع. خـلال زيـاراتي الصفيـة، لاحظـت اسـتعدادًا مهنيًـا واضحًـا؛ خطـط دروس جاهـزة، أوراق عمـل، تنظيـم للحصـة، وحـرص عـلى تحقيـق أهـداف تعليميـة محـددة، حتـى في البيئـات الصعبـة. هـذا لا ينفـي الضغـوط، لكنـه يعكـس احترافيـة عاليـة في أداء الـدور. وفي بعـض المـدارس، خصوصًـا في كليفلانـد و سياتل، كان الحضـور الأمنـي واضحًـا، سـواء في إجـراءات الدخـول أو في تنظيـم الحركـة داخـل المدرسـة. هـذه الإجـراءات لا تـأتي مـن فـراغ، بـل تعكـس سـياقًا اجتماعيًـا أوسـع، ومحـاولات مسـتمرة لتحقيـق تـوازن بـين الأمـن وبيئـة التعلـم الآمنـة نفسـيًا. ورغـم هـذه التحفظـات، لاحظـت تعاونًـا ملحوظًـا بـين الإدارة والمعلمـين لتقليـل أثـر هـذه الإجـراءات عـلى الطـلاب، والتركيـز عـلى الدعـم النفـسي والاجتماعـي.

ومـن الزوايـا التـي لا يمكـن تجاهلهـا، الاختـلاف القيمـي والثقـافي. ففـي بعـض المـدارس الثانويـة، لاحظـت ممارسـات وسـلوكيات لا تنسـجم مـع القيـم المحافظـة التـي نشـأنا عليهـا، خاصـة فيـما يتعلـق بالعلاقـات بـين الطـلاب والطالبـات. غـير أن هذه الممارسـات تُعـد في السـياق الثقـافي الأمريـكي جـزءًا مـن خطـاب الحريـات الفرديـة، ولا تُعامـل بوصفهـا انحرافًـا أخلاقيًـا بالمعنـى المتـداول في مجتمعاتنـا. وفي المـدارس الواقعـة في مناطـق تعـاني مـن الفقـر وارتفـاع معـدلات الجريمـة، كان الجـو العـام أكـثر توتـرًا. إجـراءات أمنيـة مشـددة، ضغـوط نفسـية عـلى الطـلاب، وأعبـاء إضافيـة عـلى المعلمـين والإدارة. في هــذه البيئـات، تبـدو المدرسـة وكأنهـا خـط الدفـاع الأخـير في مواجهـة مشـكلات اجتماعيـة أكـبر منهـا، وهـو مـا يضعهـا أمـام تحديـات تربويـة معقـدة.

أما المدارس المستقلة التي زرتها، فقد قدّمت نموذجًا مختلفًا نسبيًا. إدارتها أكثر مرونة، وبرامجها أكثر تخصصًا، وبعضها يرتبط مباشرة بجامعات أو مؤسسات تعليمية. في إحدى هذه المدارس، التي كانت تشرف عليها جامعة كليفلاند الحكومية ، وشاركت في مشاريع تعليمية تطبيقية، وكذلك كتبت مشروع بحثي عنها ولاحظت في تلك المدرسة اهتمامًا بتدريس لغات إضافية مثل اللغة الصينية وبرامج غير تقليدية لا نجدها غالبًا في المدارس الحكومية. ومن حيث المناهج، لا يوجد في الولايات المتحدة منهج وطني موحد، لكن توجد معايير تعليمية واضحة على مستوى الولايات. هذه المعايير تحدد نواتج التعلم المتوقعة، وتترك للمدارس والمعلمين مساحة واسعة للاجتهاد في المحتوى وطرق التدريس، وهو ما يخلق تنوعًا كبيرًا في التجربة التعليمة (للتوسع يمكن الاطلاع على الانتاجات العلمية للدكتور سعود البشر عن لولايات المتحدة).

المشاهدة السابعة عشر: التواضع أساس النجاح.

المشاهدة السابعة عشر: التواضع أساس النجاح

خلال سنوات دراستي في الولايات المتحدة، تكوّنت لدي قناعة راسخة بأن تواضع القيادات الأكاديمية والإدارية ليس سلوكًا فرديًا عابرًا، بل سمة ثقافية مؤسسية متجذّرة في بنية الجامعة الأمريكية. هذه السمة لم ألمسها في موقف واحد أو مع شخص بعينه، بل تكررت في تجارب متعددة، ومع مسؤولين وأساتذة من مستويات مختلفة، حتى أصبحت جزءًا من الصورة العامة التي ارتسمت في ذهني عن القيادة الأكاديمية هناك. وقد أُتيحت لنا، بوصفنا طلاب دراسات عليا، فرص عديدة للجلوس مع أساتذة كبار ومسؤولين رفيعي المستوى، سواء في المؤتمرات العلمية، أو في لقاءات مقررات دراسية، أو حتى في مناسبات جامعية عامة. اللافت في هذه اللقاءات لم يكن فقط سهولة الوصول إليهم، بل طريقة التعامل نفسها: بساطة في اللغة، هدوء في الحوار، إنصات حقيقي، وغياب شبه كامل للتكلّف أو المباهاة .

أحد المواقف التي ما زالت عالقة في الذاكرة كان لقائي مع نائب رئيس إحدى الجامعات في مدينة كليفلاند. كان اللقاء جزءًا من متطلبات مقرر في الموارد البشرية، ولم يتطلب ترتيبه سوى تواصل قصير لم يتجاوز يومين. استقبلني الرجل وأنا طالب دولي باحترام بالغ، ومنحني وقتًا أطول مما توقعت، أجاب فيه عن أسئلتي بتفصيل ووضوح، وشارك معي وثائق ومعلومات إدارية لم يكن مضطرًا لمشاركتها. ثم تجاوز اللقاء الإطار الرسمي، فأخذني في جولة داخل الجامعة، يشرح خلالها آليات العمل الإداري، وتقاطعاته مع الجانب الأكاديمي، وكأنني زميل مهتم لا طالب عابر. لم يكن في المشهد أي إحساس بالفوقية أو المسافة، بل تواصل إنساني مهني ترك أثرًا عميقًا في فهمي لمعنى القيادة.

تكرر هذا الإحساس في إنديانا، وربما بشكل أوضح بحكم طبيعة المدن الجامعية الصغيرة. كانت القيادات الجامعية حاضرة في الحياة اليومية؛ نراهم في الفعاليات الثقافية، وفي الأنشطة الأكاديمية، وأحيانًا في أماكن عامة عادية. تختفي الحواجز النفسية بين الطالب والمسؤول، لا لأن المكانة العلمية غير موجودة، بل لأن المكانة لا تحتاج إلى مظاهر. العلاقة هنا أفقية في التواصل، لكنها عميقة في التأثير. و حتى أعضاء هيئة التدريس،



بمختلف رتبهم العلمية، كانوا يتعاملون بمرونة وسهولة وصول لافتة. اللقاء بهم لا يقتصر على القاعات الدراسية أو ساعات مكتبية صارمة؛ بل يمتد إلى مساحات مشتركة، ونقاشات مفتوحة، وأحيانًا جلسات غير رسمية تجمع الطلاب والأساتذة دون حرج. هذا النمط من العلاقة يخلق بيئة تعليمية مريحة، تشجع الطالب على السؤال والمبادرة، وتكسر حاجز الخوف الذي قد يرافق العلاقة التقليدية بين الأستاذ والطالب. وما استوقفني في هذا النموذج أن الهيبة الأكاديمية لا تُبنى على التعالي أو المسافة، بل على المعرفة، والكفاءة، والإنجاز. التواضع هنا لا يبدو تصنعًا، بل تعبيرًا عن ثقة راسخة بالنفس وبالدور المهني. ورغم وجود فروق طبيعية بين الأشخاص في الطباع والأساليب، فإن الانطباع العام الذي خرجت به هو أن التواضع قيمة سائدة، وليست استثناءً. ومع تراكم هذه التجارب، أدركت أن القيادة الأكاديمية الفاعلة لا تحتاج إلى حواجز نفسية أو إدارية لتثبت حضورها. على العكس، كلما اقترب القائد من الطلاب وأعضاء المؤسسة، ازداد تأثيره، وارتفعت مستويات الثقة، وتحولت الجامعة من كيان رسمي جامد إلى مجتمع تعلّم حيّ. وهي قيمة تربوية وإدارية عميقة، تتجاوز حدود المكان، وتستحق أن تُستحضر كلما أُعيد التفكير في معنى القيادة داخل المؤسسات التعليمية.

المشاهدة الثامنة عشرة: الدراسات العليا.

المشاهدة الثامنة عشرة: الدراسات العليا

من خلال تجربتي الممتدة في الدراسات العليا في الولايات المتحدة، عبر أربع جامعات درست فيها حضوريًا وعن بُعد، وفي ولايات مختلفة مثل إنديانا وأوهايو وواشنطن، تبلورت لدي قناعة راسخة بأن الفلسفة التعليمية السائدة في الجامعات الأمريكية تختلف جذريًا عمّا هو مألوف في كثير من الأنظمة التعليمية الأخرى. لم يكن التعليم هناك قائمًا على الحفظ أو استرجاع المعلومات، بل على إعادة تشكيل طريقة التفكير نفسها، والانطلاق من مهارات التفكير العليا بوصفها جوهر العملية التعليمية.ففي قاعات الدراسات العليا، لم يكن السؤال المركزي: ماذا قرأت؟ بل: كيف تفكر وتحلل وتربط ما قرأت؟ كان المطلوب من الطالب أن يحلل، ويقوّم، ويقارن، ويقترح، وأن يتعامل مع المعرفة بوصفها مادة قابلة للنقد والتطوير، لا حقيقة نهائية مغلقة. هذا التحول من التلقي إلى المشاركة الفاعلة في إنتاج المعرفة كان ملمحًا ثابتًا في معظم المقررات، وأسهم مع الوقت في بناء ثقة علمية عالية لدى الطالب، وشعور واضح بالاستقلالية الفكرية.

أما أساليب التقييم، فلم تكن الاختبارات التقليدية هي الأداة الرئيسة، إلا في مقررات بعينها تفرض طبيعتها ذلك، مثل القانون، والإحصاء، وعلم النفس، وبعض مقررات نظريات الإدارة. في هذه الحالات، كانت الاختبارات ضرورية لضبط المفاهيم والمصطلحات والأسس النظرية. لكن في بقية المقررات، كان التقييم يعتمد بدرجة أكبر على الأبحاث، والعروض العلمية، وتحليل الدراسات السابقة، والمشاريع الفردية والجماعية، إضافة إلى النقاشات الصفية التي تشكّل جزءًا أصيلًا من التقييم. لم يكن الرأي يُقبل لمجرد طرحه، بل لا بد أن يكون مدعومًا بحجة علمية، أو إطار نظري، أو تجربة بحثية واضحة.

ومن أكثر الجوانب التي شكّلت تحديًا حقيقيًا في هذه التجربة هو العبء القرائي الهائل. ففي مرحلة الماجستير، كنا نواجه أسابيع تتطلب قراءة ما يقارب سبعمائة صفحة، وقد يرتفع الرقم أحيانًا إلى ألف صفحة، تبعًا لطبيعة المقرر. أما في مرحلة الدكتوراه، فقد كان العبء أكبر وأكثر كثافة، إذ تصل القراءات في بعض الفترات إلى نحو ألف ومئتي صفحة أسبوعيًا. هذا الحجم من القراءة لا يمكن

التعامل معه بعشوائية، بل يتطلب مهارات متقدمة في القراءة التحليلية، والقدرة على الانتقاء، والتنظيم الدقيق للوقت، والالتزام اليومي بالدراسة لساعات طويلة قد تتجاوز أربع أو خمس ساعات في اليوم. ورغم ثقل هذا العبء، فإنه كان في حالتي قابلًا للتكيّف، بفضل التفرغ الكامل للدراسة، وعدم الارتباط بعمل جانبي، وقلة الالتزامات الاجتماعية، إضافة إلى كوني أعزب في تلك المرحلة. هذه الظروف وفّرت مساحة ذهنية وزمنية مكّنتني بعد توفيق الله من التعامل مع متطلبات الدراسة العالية، وتحقيق نتائج أكاديمية جيدة في مرحلتي الماجستير والدكتوراه.

ومع ذلك، يبقى التحدي اللغوي هو الأصعب، خاصة في البدايات. فالقراءة المكثفة، والكتابة الأكاديمية، والمشاركة في النقاشات العلمية، جميعها تتطلب مستوى لغويًا متقدمًا، لا يتحقق بين ليلة وضحاها. غير أن هذا التحدي، مع الممارسة اليومية والانغماس الكامل، يبدأ في التلاشي تدريجيًا، ويتحول من عائق مرهق إلى أداة تمكين حقيقية، بل إلى أحد أهم مكتسبات التجربة الأكاديمية في الخارج. ومع مرور الوقت، اتضح لي أن الدراسات العليا في الجامعات الأمريكية ليست مجرد مرحلة تعليمية، بل عملية إعادة تشكيل ذهني ومنهجي. هي تجربة مرهقة بلا شك، لكنها مرهقة لأنها تطلب من الطالب أن يفكر باستمرار، وأن يعيد النظر في مسلّماته، وأن ينتقل من استهلاك المعرفة إلى إنتاجها. وهنا تتجلى الخلاصة الأعمق لهذه التجربة: أن ما يرهق الطالب في بداياته الأكاديمية، هو ذاته ما يصنعه باحثًا مستقلًا، ويمنحه أدوات التفكير العميق التي ترافقه طويلًا بعد انتهاء الدراسة.

المشاهدة التاسعة عشرة: التدريس النسائي.

المشاهدة التاسعة عشرة: التدريس النسائي

من خلال تجربتي الدراسية في الولايات المتحدة، كان التعامل الأكاديمي مع الأستاذات أحد الأبعاد التي شكّلت لي خبرة جديدة تستحق التأمل، ليس بوصفها قضية اجتماعية، بل باعتبارها تجربة تعليمية وثقافية مركّبة. وبحكم سفري السابق خارج المملكة، لم يكن مشهد النساء غير الملتزمات بالحجاب أمرًا مستغربًا بالنسبة لي، إذ اعتدت رؤية هذا النمط الاجتماعي في دول متعددة. غير أن الجديد فعلًا تمثّل في الدراسة المباشرة على يد أستاذات في معاهد اللغة، ثم في برامج الدراسات العليا، وما رافق ذلك من اختلافات في أساليب التدريس، وأنماط التفاعل الأكاديمي. ففي البدايات، واجهت شيئًا من الصعوبة النسبية في التكيّف، لا بدافع الرفض أو التحفظ، وإنما نتيجة الفروق العامة في الأسلوب التدريسي كما بدت لي آنذاك. فقد لاحظت من واقع التجربة أن عددًا من الأستاذات يتميزن بتركيز أعلى على التفاصيل، ودقة شديدة في المتابعة، والتزام صارم بالمعايير الأكاديمية، مقارنة ببعض الأساتذة الذكور الذين يميلون أحيانًا إلى المرونة الأوسع، أو إلى إعطاء مساحة أكبر للنقاش العام وتجاوز الجزئيات الصغيرة. لهذا السبب، كنت عندما يتاح لي الخيار أشعر بارتياح أكبر في بعض المقررات عند التعامل مع الأساتذة الذكور، خصوصًا في مقررات الدراسات العليا التي تتطلب نقاشًا مفتوحًا، وربطًا واسعًا بين النظرية والسياق. ومع ذلك، لم يكن هذا الارتياح موقفًا مبدئيًا أو حكمًا ثابتًا، بل انطباعًا مرحليًا مرتبطًا باختلاف الأساليب، لا بتفاوت في الكفاءة أو القدرات العلمية.

في معاهد اللغة، كان الحضور النسائي هو الغالب، وكان التعامل طبيعيًا وسلسًا إلى حدٍّ كبير. طبيعة مقررات اللغة القائمة على التواصل، والتدريب، والمهارات الأساسية جعلت التفاعل أقل حساسية، وأكثر مباشرة، ولم أشعر خلالها بأي إشكال يُذكر، بل كانت التجربة تعليمية بحتة، يسودها الوضوح والتنظيم. أما في الدراسات العليا، فقد اتسعت التجربة بشكل أعمق وأكثر ثراءً. درست على يد

أستاذات ينتمين إلى خلفيات ثقافية وعرقية متعددة: أستاذة في علم النفس من أصول نيجيرية، وأستاذة في التاريخ التربوي وأصول التربية من نيويورك، بيضاء البشرة، وأستاذ من أصول هسبانيك في الإحصاء أو علم النفس، إلى جانب أستاذات أخريات من أصول أوروبية متنوعة. هذا التنوع لم يكن شكليًا، بل انعكس بوضوح على طرائق التدريس، وزوايا الطرح، وأساليب التحليل، وأتاح لي الاطلاع على مدارس فكرية متعددة داخل التخصص الواحد.

في مرحلة الماجستير على وجه الخصوص، كان التدريس النسائي حاضرًا بقوة. درست مقررًا في القيادة التربوية لدى أستاذة، ومقررًا في الإحصاء لدى أستاذة أخرى، إضافة إلى مقرر البحث النوعي لدى أستاذة حديثة التخرج نسبيًا، سمراء البشرة، لكنها كانت متمكنة بدرجة عالية من المنهج النوعي، ودقيقة في الإشراف، ومُتقنة في توجيه الطلاب. وكان القاسم المشترك بين معظم الأستاذات هو الصرامة الأكاديمية، والاهتمام بالتفاصيل الدقيقة، وكثرة التغذية الراجعة، سواء في التقييم أو في التعليقات على الأعمال البحثية. ومن المواقف التي بقيت في الذاكرة بوصفها مشهدًا ثقافيًا جديدًا عليّ أن إحدى مدرسات اللغة كانت حاملًا في شهورها الأخيرة أثناء التدريس، وتواصل عملها بصورة طبيعية ومنتظمة. كان هذا المشهد لافتًا بالنسبة لي، ويعكس اختلاف أنماط العمل والحياة المهنية في المجتمعات الأخرى، حيث لا يُنظر إلى مثل هذه الظروف بوصفها عائقًا عن الاستمرار في الأداء الأكاديمي.

المشاهدة العشرون: الصخب في المدن الجامعية.

المشاهدة العشرون: الصخب في المدن الجامعية

بحكـم إقامتـي الدراسـية في مدينتـين جامعيتـين صغيرتـين هـما بوزمـان وتيرهـووت، تَشـكَّلت لـدي صـورة واضحـة عـن الصخـب الـذي يطغـى عـلى المـدن الجامعيـة في عطـلات نهايـة الأسـبوع، بوصفـه سـمة اجتماعيـة شـبه ثابتـة، لا حالـة عابـرة. فالمدينـة التـي تبـدو هادئـة ومنضبطـة خـلال أيـام الدراسـة، تتحـول مـع حلـول نهايـة عطلـة الأسـبوع إلى فضـاء مختلـف تمامًـا؛ ترتفـع الأصـوات، وتتسـع التجمعـات، وتبرز سـلوكيات لا تنفصـل عـن الثقافـة الطلابيـة السـائدة في هـذا النـوع مـن المـدن. في نهايـة الأسـبوع، يتغـير إيقـاع المـكان. الشـوارع القريبـة مـن الحـرم الجامعـي تصبـح أكـثر ازدحامًـا، والبيـوت الطلابيـة تمتلـئ بالحفـلات، ويغـدو تعاطـي الخمـور ممارسـة شـائعة في كثـير مـن هـذه التجمعـات. ورغـم أن مظاهـر الفـوضى تبقـى في الغالـب محـدودة زمانًـا ومكانًـا، إلا أن تكرارهـا يجعلهـا جـزءًا مـن المشـهد الاجتماعـي العـام، لا يمكـن تجاهلـه أو اعتبـاره اسـتثناءً.

ومـن أبـرز مـا يرتبـط بهـذا الصخـب مـا يُعـرف بالبيـوت اليونانيـة (الأخويـات)، وهـي مسـاكن طلابيـة جماعيـة تحولـت ثقافيًـا إلى فضـاءات للاحتفـال المفـرط في عطـلات نهايـة الأسـبوع. في هـذه البيـوت، يُنظـر إلى الإفـراط في الـشرب باعتبـاره علامـة عـلى الاسـتقلال أو "الرجولـة" لـدى بعـض الشـباب، خصوصًـا في مرحلـة عمريـة مبكـرة تتراوح غالبًـا بـين الثامنـة عـشرة والتاسـعة عـشرة. وهـي مرحلـة تتزامـن مـع أول خـروج فعـلي مـن رقابـة الأسرة، والاسـتقلال في السـكن واتخـاذ القـرار، مـا يجعـل بعـض الطـلاب أكـثر قابليـة للانجـراف خلـف سـلوكيات تفتقـر إلى الضبـط الـذاتي (للتوسـع يمكـن الاطـلاع عـلى كتـابي التعليـم العـالي في الولايـات المتحـدة)

ومـن خـلال المتابعـة والاحتـكاك، بـدا واضحًـا أن الكحـول ليـس مجـرد تفصيـل ترفيهـي، بـل عامـل مؤثـر في المسـار الأكاديمـي. فقـد ارتبطـت حـالات كثـيرة مـن التعـثر الـدراسي، أو الفشـل، أو الانسـحاب مـن الجامعـة بالإفـراط في الـشرب، ومـا يصاحبـه مـن غيـاب، وإهـمال، واضطرابـات نفسـية وسـلوكية. وكانـت هـذه الظاهـرة أكـثر حضـورًا بـين

الطلاب الذكور، على نحو يعكس تداخلاً معقدًا بين الثقافة، والعمر، ونمط الحياة الجامعية. ومع تراكم هذه المشكلات، بدأت بعض الجامعات والجهات المنظمة للأنشطة الرياضية الجامعية تتخذ إجراءات أكثر صرامة: منع بيع المشروبات الكحولية في الملاعب، تشديد الرقابة على الفعاليات، ومنع دخول من تظهر عليهم علامات السكر. لم تأتِ هذه الخطوات من فراغ، بل كانت استجابة متأخرة لسلسلة من الحوادث التي أظهرت أن فقدان الوعي المرتبط بالكحول لا يهدد الأفراد فحسب، بل يسيء إلى صورة المؤسسة التعليمية نفسها. ومن زاوية قيمية، يصعب فصل هذه المشاهد عن غياب الضابط الأخلاقي والديني في حياة كثير من الشباب. وهنا تتبدّى دلالة تحريم الخمر في الإسلام بوصفه حماية للعقل والسلوك والمستقبل، لا تقييدًا للحرية. فما يُرى من آثار سلبية على التحصيل الدراسي، والصحة، والعلاقات الاجتماعية، يؤكد أن هذه الممارسات ليست مجرد مرح شبابي، بل قضية تربوية واجتماعية واخلاقية.

المشاهدة الحادية والعشرون: العمل الجزئي للطلاب.

المشاهدة الحادية والعشرون: العمل الجزئي للطلاب

كان العمـل الجـزئي للطـلاب الأمريكيـين جـزءًا أصيـلًا مـن المشـهد الجامعـي الـذي عايشـته في الولايـات المتحـدة، بـل يـكاد يكـون سـلوكًا طبيعيًـا لا يثـير الاسـتغراب. في الحـرم الجامعـي، تـرى الطـلاب يعملـون في المطاعـم والمقاهـي الجامعيـة، وفي المكتبـات، والأنديـة، والمرافـق الخدميـة، وخـارج الحـرم في المتاجـر والمطاعـم القريبـة. ويُنظـر إلى هـذا العمـل بوصفـه تدريبًـا مبكـرًا عـلى تحمّـل المسـؤولية والاسـتقلال الـذاتي، لا مجـرد وسـيلة لكسـب المـال. في مراحـل سـابقة، كان لهـذا العمـل أثـر ملمـوس؛ إذ كان الحـد الأدنى للأجـور رغـم تواضعـه يسـاعد الطالـب عـلى تغطيـة جـزء معتـبر مـن نفقاتـه، بل إن بعـض الطـلاب كانـوا قادريـن عـلى تمويـل دراسـتهم أو معظـم رسـومها مـن خـلال العمـل الجـزئي، خاصـة قبـل الطفـرة الكبـيرة في تكاليـف التعليـم العـالي. كان التـوازن وإن كان هشًّـا قائمًـا بـين الأجـر وتكاليـف الدراسـة والمعيشـة.

غـير أن هـذا التـوازن بـدأ يختـل بوضـوح في السـنوات الأخـيرة. فقـد ارتفعـت الرسـوم الجامعيـة ارتفاعًـا ملحوظًـا، وتزايـدت تكاليـف السـكن والتأمـين والمعيشـة اليوميـة، حتـى أصبـح العمـل الجـزئي مهـما بلغـت سـاعاته غـير كافٍ لتغطيـة الرسـوم الدراسـية. صـار الطالـب الجامعـي الأمريـكي يعمـل ليؤمّـن مصروفاتـه الأساسـية، لا ليضمـن تعليمـه. وهنـا تغـيّر معنـى العمـل الجـزئي مـن فرصـة مسـاندة إلى جهـد لا يسـدّ الفجـوة. لذلـك اتجـه عـدد متزايـد مـن الطـلاب إلى القـروض الطلابيـة بوصفهـا الخيـار شـبه الوحيـد لتمويـل التعليـم. ومـع الوقـت، تحولـت هـذه القـروض إلى أزمـة اقتصاديـة ممتـدة، إذ يتخـرج كثـير مـن الطـلاب وهـم يحملـون ديونًـا كبـيرة ترافقهـم لسـنوات طويلـة، وأحيانًـا إلى مراحـل متقدمـة مـن العمـر. يبـدأ الخريـج حياتـه المهنيـة مثقـلًا بالتزامـات ماليـة تُؤثـر في قراراتـه الكـبرى: تأجيـل شراء منـزل، أو تكويـن أسرة، أو حتـى اختيـار مسـار مهنـي أقـل مخاطـرة وأكـثر اسـتقرارًا ماليًـا. هـذا الواقـع لا ينعكـس فقـط عـلى الأفـراد، بـل يـترك أثـره عـلى عدالـة الوصـول إلى التعليـم. فالفجـوة تتسـع بـين مـن يملـك دعـمًا أسريًـا أو مـوارد تمكّنـه مـن تقليـل الديـون، ومـن لا يملـك سـوى الاقـتراض. وهكـذا يصبـح التعليـم العـالي الـذي يُفـترض أن يكـون أداة للحـراك الاجتماعـي عامـلًا قـد يُعمّـق عـدم المسـاواة بـدل أن يحـدّ منهـا.

المشاهدة الثانية والعشرون: الولاء للمدرسة والجامعة.

المشاهدة الثانية والعشرون: الولاء للمدرسة والجامعة

كانت فكرة الولاء للمدرسة والجامعة من أكثر الظواهر التي استوقفتني خلال سنوات إقامتي في الولايات المتحدة، لأنها لا تبدو سلوكًا عابرًا مرتبطًا بمرحلة عمرية محددة، بل انتماءً ممتدًا يتجاوز سنوات الدراسة ليصبح جزءًا من هوية الفرد الاجتماعية والثقافية. في المدن الجامعية، بل وحتى في المدن الكبرى، من المألوف أن ترى أشخاصًا من مختلف الأعمار يرتدون قمصانًا وقبعات تحمل شعارات جامعاتهم أو مدارسهم الثانوية. اللافت أن هذا المشهد لا يقتصر على الطلاب الحاليين، بل يمتد بقوة إلى الخريجين بعد عشرات السنين من التخرج و. أتذكر بوضوح لقاءً مع رجل أمريكي تجاوز الثمانين من عمره، تخرج من جامعة واشنطن التي تقع في مدينة سياتل قبل نحو خمسين عامًا، وكان لا يزال يحرص على حضور مباريات فريق كرة القدم الأمريكية لجامعته بانتظام، ويرتدي شعارها بفخر واضح. لم يكن ذلك مجرد تشجيع رياضي، بل تعبيرًا عن علاقة طويلة الأمد مع مؤسسة شكّلت جزءًا أساسيًا من حياته.

هذا الانتماء لا يبقى في الإطار الرمزي أو العاطفي، بل ينعكس بصورة عملية في ثقافة الدعم المؤسسي. فالجامعات الأمريكية تعتمد بدرجة كبيرة على تبرعات الخريجين، التي تُعد مصدرًا رئيسًا من مصادر تمويلها. الخريج لا ينظر إلى الجامعة بوصفها مرحلة انتهت، بل باعتبارها كيانًا يستحق الدعم والاستمرار. وتُدار هذه العلاقة باحترافية عالية عبر شبكات خريجين نشطة، ورسائل دورية، وفعاليات اجتماعية ورياضية، تجعل الخريج على صلة دائمة بالمؤسسة وما تحقق من إنجازات (للتوسع الرجاء الاطلاع دراستي بعنوان:آليات تمويل الجامعات الحكومية في المملكة العربية السعودية في ضوء الجامعات المماثِلة في الولايات المتحدة و دراستي بعنوان :الرياضة الجامعية في الولايات المتحدة -الأثر الاقتصادي ودروس مستفادة للتطبيق في السعودية).الأمر ذاته وإن كان بدرجة أقل ينطبق على المدارس الثانوية. ففي كثير من المناطق، يعود الخريجون الناجحون لدعم

مدارسـهم بالتبرعـات، أو بالمشـاركة في برامـج الإرشـاد، أو بتوفـير فـرص تدريـب للطلاب. المدرسـة هنـا ليسـت مجـرد ذكـرى، بـل نقطـة انطلاق يشـعر الخريـج بواجـب معنـوي تجاههـا.

ومـن خـلال التأمـل في هـذه الظاهـرة، بـدا لي أن نجـاح هـذا النمـوذج يعـود إلى عـدة عوامـل متداخلـة. فالتجربـة التعليميـة في المـدارس والجامعـات الأمريكيـة غالبًـا مـا تكـون تجربـة شـاملة؛ لا تقتـصر عـلى القاعـة الدراسـية، بـل تمتـد إلى الأنشـطة الرياضيـة، والفعاليـات الثقافيـة، والعمـل التطوعـي، والعلاقـات الاجتماعيـة. كـما أن الرياضـة تلعـب دورًا محوريًـا في بنـاء الرابـط العاطفـي، مـن خـلال الفـرق والشـعارات والألـوان التـي ترافـق الطالـب سـنوات طويلـة وتترسـخ في ذاكرتـه. يضـاف إلى ذلـك التواصـل المؤسـسي المسـتمر، حيـث لا يُـترك الخريـج لينفصـل عـن جامعتـه، بـل يُسـتدعى باسـتمرار للمشـاركة والمتابعـة. ثـم يـأتي عامـل تقديـر العطـاء، إذ يُحتفـى بالمتبرعـين، ويُعـترف بإسـهامهم علنًـا، مـا يعـزز الإحسـاس بالقيمـة والانتماء.مـن منظـور تربـوي وتنظيمـي، يمكـن النظـر إلى هـذا السـلوك بوصفـه ولاءً مؤسسـيًا صحيًـا. فهـو لا يُفـرض بالقوانـين، ولا يُبنـى عـلى الخطـاب العاطفـي وحـده، بـل يتشـكل تدريجيًـا عـبر تجربـة تعليميـة إيجابيـة، وإدارة واعيـة للعلاقـات، ورمزيـة مؤثـرة. والنتيجـة هـي مؤسسـات تعليميـة تمتلـك اسـتدامة ماليـة، وسـمعة قويـة، وشـبكة دعـم اجتماعـي تعـود بالنفـع عـلى الأجيـال اللاحقـة.

المشاهدة الثالثة والعشرون: الجهل الجغرافي.

المشاهدة الثالثة والعشرون: الجهل الجغرافي

كانت مسألة الجهل الجغرافي والثقافي من أكثر المفارقات التي استوقفتني خلال إقامتي الدراسية في الولايات المتحدة الأمريكية، ليس بوصفها ظاهرة طريفة عابرة، بل بوصفها ملاحظة متكررة تكشف جانبًا خفيًا من العلاقة بين التقدم المادي وحدود الوعي المعرفي. فقد لمستُ عبر مواقف يومية ونقاشات عابرة وجود قصور ملحوظ في الإلمام بالجغرافيا العالمية والثقافات غير الأمريكية لدى شريحة غير قليلة من الناس، من متعلمين وغير متعلمين على حد سواء. وكان هذا القصور يظهر بوضوح عند الحديث عن العالم خارج الولايات المتحدة، ولا سيما الشرق الأوسط. فالكثيرون يمتلكون معلومات عامة شديدة السطحية، وأحيانًا مشوشة، عن الدول العربية والإسلامية، وقد يختلط عليهم تحديد مواقع الدول، أو تُدمج ثقافات مختلفة في قالب واحد؛ فيُخلط بين العربي والهندي، أو تُختزل شعوب بأكملها في صور نمطية إعلامية مبسطة. وفي بعض الأحيان، كانت الأسئلة التي تُطرح عليّ تكشف عن دهشة صادقة أكثر مما تعكس سوء نية، وهو ما يدل على غياب المعرفة لا على العداء.

هذه الملاحظات بدت لي مفارقة حقيقية؛ فكيف يمكن أن توجد مثل هذه الفجوات في مجتمع يضم جامعات عالمية، ومراكز أبحاث متقدمة، ويقود الاقتصاد العالمي؟ غير أن التأمل الهادئ يوضح أن التقدم التقني لا يعني بالضرورة اتساع الأفق الثقافي. فالنظام التعليمي في مراحله المدرسية تحديدًا لا يمنح الجغرافيا العالمية والتاريخ المقارن دائمًا المساحة التي تتيح فهم العالم بوصفه شبكة مترابطة من الشعوب والثقافات. يضاف إلى ذلك أن الإعلام الأمريكي يركّز بدرجة كبيرة على الشأن الداخلي، ما يجعل العالم الخارجي حاضرًا غالبًا عند الأزمات فقط، لا بوصفه سياقًا إنسانيًا متنوعًا.وكما أن الانكفاء العملي الذي تفرضه القوة الاقتصادية والسياسية الداخلية يخفف من الحاجة اليومية لمعرفة الآخرين؛ فحياة الفرد الأمريكي يمكن أن تستمر بسلاسة تامة دون احتكاك حقيقي بثقافات خارجية، ودون شعور بضرورة فهمها. وهذا لا يعني غياب المعرفة عن الجميع؛

فهناك نخب أكاديمية، وطلاب، ومثقفون أمريكيون يتمتعون بوعي عالمي واسع، لكن الصورة العامة تكشف فجوة معرفية لدى قطاع معتبر من المجتمع.ؤما عزز لدي هذا الانطباع هو أن كثيراً من هذه المواقف كانت تتغير فور الاحتكاك المباشر. فحين يبدأ الحوار، وتُشرح الخلفيات التاريخية والثقافية، يظهر فضول حقيقي، ويتحول الجهل إلى رغبة في الفهم. وهنا تتضح قيمة التبادل الثقافي والوجود الدولي داخل الجامعات، بوصفه وسيلة تصحيح هادئة للصورة، لا عبر الخطاب، بل عبر التجربة الإنسانية المباشرة.

المشاهدة الرابعة والعشرون: الأزياء والمظهر.

المشاهدة الرابعة والعشرون: الأزياء والمظهر

كانت الأزياء والمظهر العام من التفاصيل اليومية التي بدت لي بسيطة في ظاهرها، لكنها كاشفة في دلالتها الثقافية عند طول المعايشة داخل المجتمع الجامعي الأمريكي. فمع مرور الوقت، اتضح أن الاهتمام باللباس الرسمي ضعيف نسبيًا، وأن ما يحكم اختيارات الأفراد طلابًا وأساتذة هو الراحة والعملية قبل أي اعتبار شكلي. ففي القاعات الدراسية، لم يكن مستغربًا أن يحضر الطالب مرتديًا ملابس رياضية أو أزياء فضفاضة، وأحيانًا ملابس غير ساترة. هذا النمط لا يقتصر على فئة بعينها، بل يشمل شرائح مختلفة من الطلاب، ويصل أحيانًا إلى أعضاء هيئة التدريس أنفسهم. فقد رأيت أساتذة يحاضرون بملابس بسيطة وعصرية، دون بدلة رسمية أو ربطة عنق، وكأن الرسالة الضمنية واضحة: الجدية الأكاديمية لا تُقاس بالمظهر، بل بما يُقدَّم من معرفة ونقاش.

وخارج الحرم الجامعي، يستمر المشهد ذاته في المطارات والمرافق العامة؛ حيث يغلب اللباس المريح، وتقل العناية بالتناسق الشكلي الذي تُعطيه ثقافات أخرى وزنًا أكبر. هنا، تُقدَّم سهولة الحركة على الأناقة الشكلية، ويُنظر إلى المظهر بوصفه اختيارًا شخصيًا لا معيارًا للحكم على الكفاءة أو المكانة. ثقافيًا، يمكن فهم هذا التوجه ضمن سياق أوسع: ثقافة عملية تُعلي من الأداء والإنجاز، ونزعة مساواتية تقلّل الفوارق الرمزية بين الأستاذ والطالب، وتحرر اجتماعي من ربط الجدية بالمظهر. لا يعني ذلك غياب الذوق أو الإهمال المتعمد، بل اختلاف معيار التقييم؛ فالمظهر هنا ليس أداة لإثبات الجدارة، وإنما تعبير فردي يخضع لراحة صاحبه. ومع طول الإقامة، يتبدد الإحساس بالغرابة، ويغدو هذا النمط مفهومًا في سياقه. فالمشهد اليومي يعلّم أن القيمة الأكاديمية تُبنى بالعقل والعمل، لا بالبدلة وربطة العنق. وهي مفارقة ثقافية هادئة، تُذكّر بأن لكل مجتمع أولوياته ومعاييره الخاصة، وأن الحكم على الظواهر لا يستقيم إلا بفهم سياقها الاجتماعي والثقافي.

ثانيا: مراحلي الدراسية في بلد العم سام

المرحلة الأولى: واشنطن العاصمة (٢٠١١)

ثانيا: مراحلي الدراسية في بلد العم سام
المرحلة الأولى: واشنطن العاصمة (٢٠١١)

في نهاية الشهر التاسع من عام ٢٠١١ وصلتُ إلى واشنطن العاصمة قادمًا من الرياض على متن الخطوط الجوية السعودية كانت الرحلة طويلة امتدت قرابة ثلاث عشرة ساعة لكنها جرت بهدوء وتنظيم طاقم الطائرة كان متعاونًا على نحو لافت وكأنهم يدركون أن كثيرًا من الركاب طلاب يخطون أول خطوة في تجربة ابتعاث طويلة فكانوا يساعدون في تعبئة النماذج ويشرحون إجراءات الدخول والتفتيش ويخففون توتر البداية ومن التفاصيل التي بقيت عالقة في الذاكرة أن مطبخ الطائرة في مؤخرة المقصورة كان مفتوحًا طوال الرحلة يقدم الطعام والمشروبات بلا انقطاع وهو أمر بسيط في ظاهره لكنه كان كافيًا ليمنح شعورًا بالعناية ويكسر ثقل السفر الطويل.

ما إن هبطت الطائرة في مطار واشنطن القديم حتى بدأت التجربة بوجهها الأصعب حُولت مباشرة إلى غرفة التفتيش المكثف وهناك أدركت أن ما سمعناه عن إجراءات الدخول لم يكن مبالغًا فيه كنت لا أجيد الإنجليزية إلا بقدر محدود رغم أشهر قضيتها في معهد لغة لم تكن كافية لمواجهة موقف رسمي متوتر جلست في الغرفة مع عدد من ركاب الطائرة من بينهم رجل أردني مع زوجته وابنته الصغيرة كان التوتر واضحًا على الجميع والتعامل في ذلك اليوم لم يكن لطيفًا كانت الكلاب المدربة موجودة في القسم القريب وإن لم تقترب من الجالسين إلا أن حضورها كان باعثًا على القلق حين اشتكى الرجل الأردني من طول الانتظار جاءه الرد قاسيًا اجلس أو سأرجعك إلى بلدك هدأت الزوجة زوجها وبقينا ننتظر حتى مضت أكثر من خمس ساعات كاملة قبل أن أستلم حقائبي واخرج بسلام من المرفق.

خارج الجمارك وجدت مندوبًا من الملحقية السعودية الثقافية مصري الجنسية كان ينتظر الطلاب أخذني إلى الحافلة ويبدو أنني كنت آخر من خرج في تلك الرحلة انطلقت بنا الحافلة إلى فندق شيراتون في ولاية فيرجينيا وهناك كانت أول مفاجأة ثقافية صغيرة اكتشفت أن للشيراتون درجات وأن هذا شيراتون ثلاث نجوم كانت الملحقية في تلك الفترة تتعامل مع عدة فنادق لمساندة الطلاب في أيام

الوصول الأولى ضمن ترتيبات تتزامن مع إطلاق البرنامج الإلكتروني الجديد (سفير)وصلت إلى الفندق منهكًا وعُرض علي خيار السكن مع طالب آخر مقابل ثلاثين دولارًا أو السكن منفردًا مقابل ستين دولارًا فاخترت دون تردد الغرفة المنفردة كنت بحاجة إلى الهدوء أكثر من حاجتي لتوفير المال

لم يكن الفندق في قلب المدينة بل في الضواحي وكان يوفر حافلة إلى محطة المترو ومنها يمكن الوصول إلى وسط واشنطن في إحدى المرات استقليت الحافلة ثم قطار الأنفاق ووصلت إلى المنطقة السياحية بتكلفة تسعة دولارات لاحظت وجود عرب في بهو الفندق يعرضون خدماتهم على الطلاب من تنظيم جولات إلى وسط العاصمة مقابل مبالغ تتجاوز المئة دولار رغم أن المسافة لا تزيد على أربعين دقيقة فضلت الاعتماد على نفسي وتجولت قرب البيت الأبيض والمتاحف المحيطة لكن الانطباع الأول عن البنية التحتية لم يكن مثاليًا فالميترو بدا قديمًا والإضاءة ضعيفة على غير ما رسمته المخيلة عن عاصمة أقوى دولة في العالم.





لأن الوصول كان في عطلة نهاية الأسبوع قررت يوم الأحد أن أتعرف على المنطقة القريبة من الفندق الفندق يوفر مواصلة إلى وسط الضاحية مرة كل ساعة لكنني آثرت المشي الجو كان باردًا قليلًا والهدوء يلف المكان بشكل غير مألوف بعد ساعتين من السير أدركت أنني أضعت الطريق حاولت العودة ولم أعرف كيف اتصلت بالفندق وكنت قد احتفظت بعنوانه لكن موظف الاتصالات لم يفهم علي بسبب ضعف لغتي ومع اقتراب المغيب وبعد ساعة أخرى من المشي لمحت سيارة شرطة فأشرت إليها توقف الشرطي وسألني بلطف كيف أستطيع مساعدتك شرحت له بصعوبة وأعطيته بطاقة الفندق استخدم جهازه اللاسلكي وطلب سيارة أجرة وصلت خلال دقائق كان السائق يضع قبعة كاوبوي وتبين أنه أردني من أصل فلسطيني عاش في الدمام خمسة عشر عامًا .

في صباح الاثنين توجهت إلى الملحقية السعودية الثقافية للمرة الأولى استقليت سيارة أجرة مع مجموعة من الطلاب ودفع كل منا عشرة دولارات ومن الطريف أن بعض الموظفين العرب كانوا يزورون الفنادق ويعرضون توصيل الطلاب بالمبلغ نفسه ذهابًا وإيابًا عند الوصول طُلب منا تسليم الجوالات .في اليوم نفسه حضر خالد الحسين صديق أخي عثمان ليساعدني كان هناك تنسيق مسبق قبل وصولي حاولنا إنهاء الإجراءات لكن لم ننجح في ذلك اليوم بعد انتهاء الدوام أخذني بسيارته الموستنج إلى مجمع تايسون وتناولنا العشاء ثم أعادني إلى الفندق في اليوم التالي سارت الأمور على نحو أفضل وحرصت على مقابلة الدكتور ناصر المسعري الذي كان أستاذا في قسم المناهج بجامعة الملك سعود ويعمل في الملحقية في تلك الحقبة ثم رافقني إلى قسم المبتعثين من الجهات الحكومية وعرّفني على المشرفة الدراسية آية وهي مصرية شابة في منتصف العشرينات تقريبًا ومن اللافت أن الملحقية وفرت في الفنادق أجهزة كمبيوتر وماسحات ضوئية لمساعدة الطلاب على فتح ملفاتهم وهو ما كان يعد حينها تجديدًا تنظيميًا مهمًا

المرحلة الثانية: بولمان - ولاية واشنطن (٢٠١١/٠٩-٢٠١٣/٠١).

المرحلة الثانية: بولمان - ولاية واشنطن (٢٠١١/٠٩-٢٠١٣/٠١)

بعد أن انتهيت من شراء احتياجات السكن الأساسية من مدينة موسكو مفرش وبطانيات ومخدات وعدت إلى بولمان بدأت أدرك أن الانتقال الجغرافي كان أسهل من الانتقال النفسي فهناك فرق بين أن تصل إلى مدينة جديدة وبين أن تبدأ فعليًا في العيش فيها وأن تُنشئ يومك من الصفر بلا شبكة علاقات ولا لغة كافية ولا ذاكرة محلية تستند إليها كانت شقتي تبعد قرابة نصف ساعة بالباص عن معهد اللغة التابع لجامعة واشنطن الحكومية وهذا البعد يبدو معقولًا على الورق لكنه على أرض الواقع كان مرهقًا لطالب لا يزال يتعلم أبسط تفاصيل المدينة وأبسط مفردات الحياة اليومية كيف يركب الباص وكيف يسأل وكيف يشتري وكيف يشرح نفسه حين يتعثر لسانه

أذكر أنني في إحدى زياراتي الأولى لأحد المتاجر الكبيرة في بولمان اشتريت احتياجات بسيطة جدًا زيتًا وخبزًا وبعض الخضار ثم وقفت أمام الفاتورة وأنا أظن أنها ستنتهي بمبلغ محدود فإذا بها تقفز إلى ثلاثة وتسعين دولارًا كانت صدمة اقتصادية صغيرة لكنها كانت كافية لتعيد ترتيب تصوري عن الأسعار وعن معنى أن تعيش في بلد عملته أقوى والاختلاف فيه ليس اختلاف رقم بل اختلاف نمط حياة اتصلت بالأخ العزيز إبراهيم البريكان وكان حينها في تكساس فقال لي جملة بقيت معي طويلًا احسب الدولار كأنه ريال واحد دولار يساوي واحد ريال لم تكن نصيحة اقتصادية بقدر ما كانت وصفة نفسية لترويض القلق فالطالب في بداياته لا يعاني من الأسعار فقط بل يعاني من المقارنة المستمرة بين ما اعتاده وما يراه.

وبمساعدة إبراهيم بدأت أرتب احتياجاتي التقنية فتواصلت مع شركة تايم وورنر كابل للحصول على الإنترنت وللمرة الأولى في حياتي استخدمت(الموني أوردر) للدفع لأنني لم أكن أمتلك حسابًا بنكيًا أمريكيًا ولا بطاقات محلية وكانت تلك التفاصيل البسيطة تؤكد لي كل يوم أن القادم الجديد ليس مشغولًا بالدراسة وحدها بل بحياة كاملة تتطلب أدواتها الخاصة . جاء اليوم الأول في معهد اللغة مزيجًا

من الحماس والخيبة يوم اختبار تحديد المستوى وإنهاء الإجراءات النظامية وما أزعجني منذ اللحظة الأولى هو العدد الكبير جدًا من الطلاب السعوديين كنت أؤمن ولا أزال أن معهد اللغة ينبغي أن يكون مساحة تجبرك على استخدام الإنجليزية لأنك مضطر لا لأنك متحمس فقط لكنك حين تدخل وتجد لغتك الأم تحيط بك من كل الجهات تتراجع الضرورة ويبدأ العقل يختار الأسهل كان المعهد ستة مستويات طلاب البكالوريوس مطالبون بتجاوز المستوى الخامس وطلاب الدراسات العليا مطالبون بتجاوز المستوى السادس وتم وضعي في المستوى الثاني وكان الفصل خليطًا من السعوديين والعمانيين وكنت أذكر أن سلطنة عمان ابتعثت في ذلك العام قرابة ألف طالب وكان من زملائي المهندس حسام سمكري والمهندس محمد اللحياني معيدان من جامعة تبوك ومن أهل مكة وكذلك سامي الحربي أبو يزيد الذي ربطتني به صداقة طويلة ومن الطلبة العمانيين سلطان وجهاد ولاحظت أن عددًا كبيرًا منهم صُنّف في مستويات متقدمة وهو ما جعلني ألتفت إلى جودة تعليم اللغة في عمان مقارنة بما اعتدناه في مساراتنا التقليدية.

مر علينا عدد من المدرسين أسماءهم لا تزال حاضرة في الذاكرة إيمي وشارون وليسلي التي درست لاحقًا في مسقط وكيلسي الكندية وديفيد وكانت مدة كل مستوى ثمانية أسابيع واليوم الدراسي يبدأ من الثامنة والنصف صباحًا حتى الثالثة والنصف عصرًا والواجبات كانت مكثفة إلى حد يبتلع اليوم كله لا وقت لمتابعة مباريات ولا أفلام ولا حتى ترف الاسترخاء كانت القراءة والكتابة والمواد السمعية هي الثقل الأكبر بينما كانت مهارة التحدث تأتي متأخرة قليلًا رغم أنها الحاجز الحقيقي في حياة الطالب خارج الفصل

نجحت في الانتقال من المستوى الثاني إلى الثالث ثم من الثالث إلى الرابع وكنت أشعر في كل انتقال أنني أتنفس قليلًا وأن المدينة بدأت تهدأ وأن اللغة بدأت تسير ولو ببطء لكن المستوى الرابع كان نقطة التحول كان صعبًا بدرجة غير معقولة وكان يؤهل الطلاب للالتحاق بكليات المجتمع التابعة للجامعة وفشلت في اجتيازه من المرة الأولى ثم أعدت الاختبار وفشلت مرة أخرى بفارق درجات قليلة جدًا المشكلة لم تكن في الفارق بل في أثره النفسي لأن الرسوب في اللغة ليس رسوبًا

أكاديميًا فقط بل إحساس بأنك عالق في مكان واحد بينما الزمن يمضي والابتعاث لا ينتظر أحدًا.تزامنت تلك الفترة مع قراري بالسفر إلى السعودية للمرة الأولى بعد أكثر من عشرة أشهر وكان رمضان قد اقترب واستعددت نفسيًا للعودة وكأنها استراحة راحة قبل استكمال الرحلة لكنني تلقيت نتيجة الرسوب وأنا في مطار نيويورك لحظة إعلان النتيجة كانت قاسية لأن المكان نفسه يحمل توتر السفر والانتقال اتصلت بالمدرسة ليسلي وطلبت تدخلها ووعدتني بالتحدث مع الإدارة وفي تلك اللحظة اتخذت قرارًا داخليًا بمغادرة بولمان بعد العودة من السعودية شعرت أن بقائي هناك طال أكثر مما ينبغي وأن مستوى اللغة لا يتقدم بالسرعة التي تساوي الوقت والجهد وأن هناك شيئًا من عدم الإنصاف الإداري وقع علينا نحن وعدد من الطلبة.



عدت إلى الرياض في رمضان ٢٠١٢ ثم رجعت إلى أمريكا برؤية أوضح الانتقال إلى مدينة أكبر والسكن مع عائلة أمريكية كنت أبحث عن بيئة تُجبرني على التحدث يوميًا لا أن أعيش في دائرة عربية واسعة تريحني على حساب تطوري كانت الملحقية تسمح بتغيير المعهد مرة واحدة فقط وفي نفس الولاية وكنت أطمح إلى معهد جامعة واشنطن في سياتل لكنه كان ممتلئًا بسبب الضغط الكبير فحصلت في النهاية على قبول في معهد إي إل إس سياتل رغم أن سمعته لم تكن مشجعة لكنني قررت المضي لأنني كنت أبحث عن المخرج لا عن المثالية. قبل المغادرة حدث ما يشبه الانتصار المتأخر ففي أيامي الأخيرة في المعهد أردت أن أختبر بنفسي مدى حياد الإدارة اجتمعت مع ديفيد مساعد مدير المعهد وشرحت له أنني لم أفشل إلا بفارق بسيط فقال ببرود أنت طالب مبتعث ولا تخسر شيئًا من الإعادة كانت الجملة في ظاهرها منطقية لكنها في حقيقتها تكشف نظرة إدارية ترى الوقت بلا قيمة لأن المال يأتي من جهة رسمية أجبته بأن لدي مدة زمنية محددة لإنهاء اللغة وأنني إن لم أُساعد فسأغير المعهد وكنت قد بدأت فعلًا إجراءات النقل ولم تمضِ سوى أقل من يوم واحد حتى تم نقلي إلى المستوى الخامس بقيت فيه قرابة شهر ثم غادرت بولمان نهائيًا وكأن المعهد اعترف متأخرًا بأن المشكلة لم تكن في قدرتي بل في قراءتهم لها

كانت بولمان مدينة ريفية تحيط بها المزارع وتمتد جغرافيًا نحو ولاية أيداهو المعروفة بإنتاج البطاطس الخيارات التجارية محدودة لكن مطاعم الوجبات السريعة حاضرة وكان من أشهر ما يذكر مطعم كوغر برغر نسبة إلى فريق الجامعة حضرت مباراة واحدة لفريق الكوغرز في دوري الجامعات وخسرها الفريق ولم تكن الهزيمة مهمة بقدر ما كان المهم هو اكتشاف كيف تتحول الرياضة هناك إلى طقس اجتماعي حتى في مدينة صغيرة أما التسوق فكنت أفضّل موسكو لأن متجر وينكو فيها أرخص بكثير من المتاجر الأغلى في بولمان وكنت أتعلم مع الوقت أن الاقتصاد في المدن الصغيرة لا يعني دائمًا رخصًا بل قد يعني قلة منافسة وارتفاع أسعار

اجتماعيًا كانت الفترة نشطة أكثر مما يتوقعه الإنسان من مدينة صغيرة كونت علاقات مع سعوديين وعرب وآسيويين وأمريكيين وكانت علاقتي ببعض المدرسين جيدة واستمرت حتى مراحل لاحقة ولاحظت كثرة المنصرين الإنجيليين في المعهد ومركز الطلاب الأجانب كان يستضيف شخصًا أمريكيًا اسمه ويستن كل ثلاثاء لمحادثة الطلاب ثم تبين لاحقًا أنه منصر وكانت هناك جلسة إنجلش كورنر كل خميس تقودها طالبات من الكنيسة الإنجيلية بحضور اجتماعي جذاب وكان بعض الطلاب يحضر بدافع اجتماعي بحت لا أكثر وتعرفت هناك على مايكل تاب وربطتني به علاقة خاصة وكان لديهم لقاء أسبوعي لدراسة الكتاب المقدس ليلة الجمعة حضرت بعضه بدافع المعرفة لا الجدل وكان ذلك جزءًا من فضولي لفهم البيئة من الداخل لا من خلال الصور الجاهزة

ولأن الضغط الدراسي وطول الفترات بين المستويات كانا يتركان فراغًا نفسيًا لجأت في عام ٢٠١٢ إلى السفر كثيرًا كنوع من التعويض والهروب المؤقت من إحساس العزلة زرت سياتل لأول مرة ثم بورتلاند ثم سافرت إلى كاليفورنيا ولاس فيغاس فمررت بلوس أنجلوس وسان فرانسيسكو وسان دييغو ولونغ بيتش في سياتل زرت مصنع بوينج وجربت مطعم مراكش المغربي وفي سان فرانسيسكو زرت سفينة كوين ماري وسجن ألكاتراز والحي الصيني وفي لوس أنجلوس زرت ديزني لاند وسيكس فلاغز ومنطقة أناهايم المليئة بالعرب حيث كنا نتناول العشاء العربي كل ليلة وفي سان دييغو زرت حديقة الحيوان والمدينة المكسيكية وكانت تلك الرحلات تمنحني شعورًا بأن أمريكا ليست مدينة واحدة وأن ضيق المكان يمكن أن يُعالج باتساع الجغرافيا ولو مؤقتًا

المرحلة الثالثة سياتل: من معهد اللغة إلى عتبة الدكتوراه

المرحلة الثالثة سياتل: من معهد اللغة إلى عتبة الدكتوراه

سعود مع سياتل كانت علاقة خاصة، أشبه بقصة عشق هادئة، بدأت بالانجذاب، وتعزّزت بالتجربة، وانتهت كما تنتهي معظم قصص العشق بالفراق الحتمي. ثلاث مراحل جمعتني بهذه المدينة؛ لكل مرحلة طعمها، ولكل تجربة أثرها، لكن سياتل بقيت المكان الذي تتداخل فيه الذاكرة الشخصية مع التحوّل الأكاديمي والإنساني. عشتُ المرحلة الأولى في سياتل خلال عامي ٢٠١٢-٢٠١٣، بعد أكثر من عام قضيته في مدينة بولمان. في تلك اللحظة شعرت أن الوقت قد حان لاتخاذ قرار مفصلي: الانتقال إلى مدينة كبيرة، أوسع من حيث فرص الاحتكاك الاجتماعي، وأكثر تنوعًا إنسانيًا، مع تجربة السكن لدى عائلة أمريكية. كنت أعرف عن سياتل أنها مدينة مطيرة، قليلة الشمس، وذات ضرائب مرتفعة نسبيًا، لكنني كنت في وضع مختلف عن عامي الأول في الولايات المتحدة؛ امتلكت مهارات أفضل للتعامل مع الخدمات، وفهمًا أعمق للنظام اليومي، وثقة أعلى بالنفس. انتقلت من بولمان إلى سياتل بالطائرة، واستأجرت سيارة عند الوصول. قبل الانتقال، بذلت جهدًا كبيرًا للعثور على عائلة أمريكية مناسبة للسكن، لكن الأمر لم يكن سهلًا كما توقعت، خصوصًا مع الكثافة الكبيرة للطلاب السعوديين في المدينة آنذاك. تواصلت مع جهات متعددة، ومراكز سكن طلابي، لكن معظمها كان يعتذر بسبب الضغط الكبير على العائلات المستضيفة.قبل يومين فقط من السفر، وجدت إعلانًا في موقع (كريغزلِست) لعائلة تفضّل الطلاب الدوليين. تواصلت فورًا مع صاحب الإعلان، وتم الاتفاق على اللقاء. بعد وصولي إلى سياتل، توجهت مباشرة إلى المنزل في منطقة(شورلاين)شمال المدينة. الغرفة كانت مناسبة، والإيجار ست مئة دولار شامل الخدمات، دون التزام طويل الأمد. المسافة إلى المعهد كانت طويلة نسبيًا باستخدام النقل العام، لكن ذلك كان مقبولًا في ظل طبيعة المدينة، حيث يُعد النقل العام الخيار الأكثر عملية بسبب ازدحام الشوارع وارتفاع تكاليف الوقوف والوقود.هذه التجربة كشفت لي جانبًا مهمًا من واقع السكن مع بعض العائلات؛ فبعضها يتعامل مع الطلاب بوصفهم مصدر دخل أكثر من كونهم فرصة للتبادل الثقافي. المعاملة كانت طيبة، لكن الوقت المخصص للتفاعل محدود، والقيود اليومية كثيرة، ما جعل التجربة أقل

ثـراءً مـما كنـت أبحـث عنـه، رغـم أن المنطقـة نفسـها كانـت جميلـة، وقريبـة مـن الخدمـات والمراكـز الرياضيـة.

بعـد أقـل مـن أسـبوعين، تلقيـت رسـالة تفيـد بوجـود فرصـة سـكن أخـرى مـع سـيدة تُدعـى مارثـا. تواصلـت معهـا، ودعتنـي لزيارتهـا مسـاء الجمعـة. كان العـرض مفاجئًـا؛ سـكن بتكلفـة رمزيـة جـدًا (٣٠٠ دولار)، يشـمل الاسـتخدام الكامـل للمرافـق، وهدفـه كـما أوضحـت التعـارف والتواصـل الإنسـاني أكـثر مـن الجانـب المـالي. انتقلـت لاحقًـا إلى منزلهـا في شـمال شرق سـياتل. ورغـم أن الموقـع أقـل حيويـة مـن حيـث المطاعـم والمراكـز الرياضيـة، إلا أن مـا وفـره هـذا السـكن مـن تواصـل يومـي مكثـف عـوّض كل شيء آخـر. العيـش في هـذا المنـزل شـكّل نقطـة تحـوّل حقيقيـة في تجربتـي اللغويـة والاجتماعيـة. الحديـث اليومـي الطويـل، التصحيـح المسـتمر للأخطـاء، والاحتـكاك بأشـخاص مـن خلفيـات مختلفـة، كل ذلـك أسـهم في تحسـين لغتـي بشـكل ملحـوظ. لم يكـن السـكن مجـرد غرفـة، بـل مسـاحة إنسـانية مفتوحـة، يدخلهـا ويخـرج منهـا ضيـوف مـن ثقافـات متعـددة، لـكل منهـم قصـة وتجربـة، مـا جعـل المنـزل أشـبه بمحطـة تـلاقٍ إنسـاني دائـم.

خـلال هـذه المرحلـة التحقـت بمعهـد إي إل إس في حـي كابيتـول هِـل، وهـو معهـد خـاص لتعليـم اللغـة الإنجليزيـة لغـير الناطقـين بهـا، يقـدم اثنـي عشر مسـتوى دراسـيًا، بنظـام مكثـف يغطـي جميـع المهـارات. صُنّفـت في المسـتوى الرابـع، لكننـي بـدأت ألاحـظ تحسـنًا حقيقيًـا في أدائي، مـا شـجعني عـلى تكـرار دخـول اختبـار آيلتـس مـرات عديـدة، مسـتفيدًا مـن الدعـم الرسـمي في تلـك المرحلـة. تعامـل المعهـد كان إيجابيًـا، والمدرسـون متعاونـون، ومـع مـرور الوقـت تمكنـت مـن التخـرج مـن أعـلى مسـتوى لغـوي بعـد رحلـة طويلـة امتـدت لأكـثر مـن عـام. وخـارج الدراسـة، كنـت حريصًـا عـلى تطويـر لغتـي بـكل وسـيلة ممكنـة؛ الاسـتماع اليومـي للإذاعـة، قـراءة الصحـف أثنـاء التنقـل بالحافلـة، والمحادثـات المسـتمرة داخـل المنـزل وخارجـه. في البدايـة لم أكـن أفهـم كثـيرًا مـما أقـرأ أو أسـمع، لكـن الإصرار والممارسـة اليوميـة أحدثـا فرقًـا واضحًـا.



سياتل مدينة متناقضة؛ أحياء شبابية صاخبة، حياة ليلية نشطة، تنوع ثقافي لافت، زرت معالمها، وشاركت في مناسبات اجتماعية متعددة، من حفلات زواج بسيطة للغاية إلى لقاءات عائلية دافئة. ما لفت انتباهي هو بساطة الحياة الاجتماعية، وقلة التكلف، حتى في المناسبات الكبيرة، حيث تُقدَّم العلاقات الإنسانية على المظاهر. وشهدت المدينة في تلك الفترة توسعًا ملحوظًا في المطاعم العربية والصومالية، ومقاهي الشيشة، ما يعكس أثر الهجرة والتنوع الثقافي. كنت أجد الطعام العربي بسهولة، وأحيانًا بطابع قريب جدًا من المطبخ السعودي، وهو ما خفف كثيرًا من شعور الغربة.

من الرحلات المؤثرة خلال تلك المرحلة، زيارة مناطق زراعية في ولاية واشنطن، حيث الطبيعة الهادئة، والبيوت الريفية البسيطة، والعمل المرتبط بالأرض. مثل هذه الزيارات كانت تمنحني مساحة للتأمل، بعيدًا عن ضغط الدراسة والمدينة. ما يميز تجربة سياتل في مرحلتها الأولى أنها لم تكن مجرد دراسة لغة، بل تجربة حياة كاملة: انتقال من العزلة إلى التفاعل، من التلقي إلى المشاركة، ومن الغربة الحادة إلى الفهم الأعمق للآخر. كانت مرحلة تأسيس حقيقية، ليس فقط لغويًا، بل إنسانيًا وفكريًا.ومع أن العلاقة مع سياتل استمرت لاحقًا في مرحلتين أخريين في نهاية ٢٠١٥، ثم صيف ٢٠١٦ إلا أن المرحلة الأولى بقيت الأعمق أثرًا، والأكثر حضورًا في الذاكرة. هي المرحلة التي بدأ فيها العشق، وتشكّلت فيها الروح، قبل أن يأتي الفراق... بهدوء، ودون ضجيج.

مرحلة كليفلاند - أوهايو

(٢٠١٤/٠١ - ٢٠١٥/٠٨)

مرحلة كليفلاند – أوهايو (٠١/٢٠١٤ – ٠٨/٢٠١٥)

بدأت مرحلتي الدراسية في كليفلاند مطلع يناير ٢٠١٤، في قلب شتاء قارس اشتهرت به المدينة. كان البرد شديدًا، لكن ارتفاع الرطوبة جعل التكيّف ممكنًا؛ فارتداء الملابس الثقيلة المناسبة كان كافيًا للاستمرار في نمط حياة طبيعي. وصلت إلى المطار بعد رحلة مرّت عبر فرانكفورت ثم نيويورك، ومنها استقللت سيارة أجرة إلى فندق قريب من (Cleveland State University)أوصى به طلاب عبر منصات إلكترونية. مكثت فيه أسبوعًا، ثم انتقلت إلى شقة مقابلة للجامعة، مفضّلًا نمط السكن دون عقد سنوي، وهو أمر شائع في الولايات المتحدة ويمنح الطالب مرونة عالية. كانت الشقة في الدور الرابع من مبنى قديم جدًا يتجاوز عمره قرنًا من الزمن. الإيجار ٥٣٠ دولارًا شهريًا شامل الكهرباء والماء، ومفروشة بالكامل، حتى بدا الحمام وكأنه خارج من فيلم قديم. ميزة السكن الأبرز قربه من كلية التربية (خمس دقائق مشيًا)، وسهولة السداد دون التزام طويل. أما العيوب فكانت واضحة: قدم المبنى، ضعف التهوية، غياب التكييف والمراوح، شبابيك كبيرة غير قابلة للفتح يتسلل منها الهواء البارد شتاءً، ما اضطرني لتغطيتها بطبقة نايلون كما تُغطّى الأطعمة. الفرن يعمل بالغاز دون تهوية كافية، ودهانات السقف كانت تتقشر يوميًا.

سكان المبنى في الغالب من الطبقة الفقيرة ومن الأمريكيين من أصول إفريقية. ورغم سمعة شرق كليفلاند بوصفه من أخطر المناطق، لم أتعرض لأي مشكلات تُذكر. غير أن بُعد المنطقة عن الأسواق الغذائية كان تحديًا حقيقيًا؛ إذ كنت أمشي مسافات طويلة وسط الثلوج للوصول إلى متجر Dave's Market، حتى افتتح سوبرماركت في الداونتاون أواخر فترة إقامتي. وتتميّز منطقة الجامعة بقربها من وسط المدينة والشاطئ والمتاحف. في الداونتاون يقع (Terminal Tower)، وهو معلم بُني في عشرينيات القرن الماضي ويضم خدمات ومطاعم وسينما وترام. كنت أزوره أسبوعيًا تقريبًا؛ تذكرة السينما بعد خصم الطلبة سبعة دولاراتالأرخص في المدينة، رغم أن المكان نفسه غير جاذب من حيث الحيوية.

رياضيًا، تضم المدينة فرقًا معروفة؛ فريق كرة السلة حقق بطولة الدوري عام ٢٠١٦، بينما خسر فريق البيسبول النهائي في أحد المواسم، أما كرة القدم الأمريكية فسمعتها التنافسية أقل. كانت الرياضة حاضرة في المزاج العام، وتؤدي دورًا مهمًا في بناء الانتماء المحلي. وفي تلك الفترة كان عدد المبتعثين السعوديين في الولايات المتحدة يتجاوز مئة ألف طالب، وكان الالتحاق بالبعثة الحكومية ميسّرًا. قيمة المكافأة قرابة ١٨٤٠ دولارًا، مع تغطية الرسوم والتأمين الطبي وتذاكر سنوية. أتذكر في فصل ربيع ٢٠١٥ مقررًا عامًا لطلبة الماجستير بكلية التربية: ثماني عشرة طالبة سعودية من أصل اثنتين وعشرين (جميعهن غير مرتبطين بجهة عمل داخل السعودية باستثنائي وطالبة أخرى). التواصل داخل الفصل كان صعبًا نسبيًا بحكم الخصوصية الاجتماعية؛ كان تواصلهن مع الطلاب الأمريكيين أسهل من التواصل معي، رغم انفتاحي.

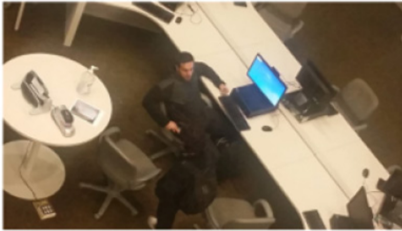
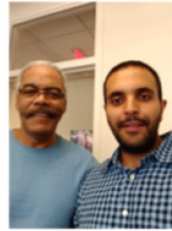
على الصعيد الاجتماعي، تعرّفت في بداياتي على معيد من جامعة الجوف عرّفني على مجموعة من الأصدقاء، وتكوّنت صداقات ثابتة مع زملاء وأطباء سعوديين في مستشفيات كليفلاند المرموقة. لاحقًا انضم زملاء دراسة قدامى، وأصبحت اللقاءات شبه أسبوعية.

في خريف ٢٠١٤ انتقلت إلى(Reserve Square)في الداونتاون مبنيين بارتفاع ٢٢ طابقًا بخدمات متكاملة على مدار الساعة (بقالة، غسالات، نادي رياضي). ضمّ المكان ديوانية خليجية ومصلى يتسع لنحو ١٥٠ مصلّيًا تُقام فيه الجمعة والجماعة. الإيجار ٨٩٠ دولارًا إضافة إلى الإنترنت؛ أعلى من السكن السابق، لكني احتفظت به رغم عودتي المؤقتة للرياض لشح المعروض. اشتريت الأثاث من معرض عربي بنحو ١٢٠٠ دولار شامل التركيب.

سارت الدراسة بسلاسة (تسع ساعات للفصل). كان الأساتذة متعاونين ومشجعين، والعلاقة بين الطالب والأستاذ أفقية مقارنة بما اعتدناه: تواضع، إنصات، ومحاولة فهم ظروف الطالب. إلى جانب الدراسة، كانت الحياة العربية في كليفلاند نشطة:

مطاعم، حلاقون، مقاهٍ. وقد زارني والدي أثناء إقامته لدى أختي في إنديانا بولس؛ قمنا برحلة عائلية إلى نيويورك وواشنطن العاصمة، ثم جولة في مجتمعات الآمش، وزيارة ديترويت وديربورن (التجمع العربي اليمني التاريخي المرتبط بمصانع فورد)، ومتحف فورد، ثم شلالات نياجارا.

ميدانيًا، أجريت زيارات أسبوعية لمدارس مختلفة وكتبت تقارير للأستاذ. في إحدى الثانويات (عدد طلابها ١٦٠٠) لاحظت ترتيبات أمنية، ومبنيين دراسيين يتطلبان عبور شارع فرعي بإيقاف المرور نهاية كل حصة. زرت صفوف الطلاب غير الناطقين بالإنجليزية (من تايلند والعراق وأفغانستان). كان بعض طلاب العراق أقل اكتراثًا بالدراسة، راغبين بالحديث معي، ما وضعني في حرج. إجراءات السلامة كانت صارمة؛ يرافقني رجل أمن بين الحصص ويُوثّق خروجي. راقبت حصصًا في الإحصاء والتاريخ والجغرافيا والتربية الخاصة، ووجدت المعلمين متعاونين.




في نهاية الإقامة درستُ حالة مدرسة ابتدائية مستقلة تابعة لكلية التربية تطبق برنامج البكالوريا الدولية وتدرّس الماندرين لغة ثانية. أغلب الطلاب من الطبقة الفقيرة (مستحقو الوجبات المجانية)، وبعضهم سعوديون. انتشرت الكاميرات مع وجود حارس دائم. المدارس ترحب بالمتطوعين ذوي الخبرة لدعم القراءة والسلوك. ومن اللمسات الإنسانية المؤثرة حضور طالبة سعودية إلى الفصل مع رضيعتها بسبب إغلاق الحضانة؛ تعاملت الأستاذة بإنسانية عالية لإزالة الحرج. تكرر ذلك في مقرر القانون التعليميم المكثف أيام السبت (من الثامنة صباحًا حتى الواحدة ظهرًا)، مع كتاب ضخم يناهز خمسة كيلوجرامات ثمنه ٢٠٠ دولار. كنت أستقل تاكسيًا فلسطينيًا كل سبت بسبب الثلوج (٣٥ دولارًا للمشوار الواحد). كما كان تواصلي مع المبشرين محدودًا مقارنة بمدن أخرى؛ شاركوا الطلاب أنشطة رياضية وترفيهية دون ضغط. تكلفة المعيشة كانت مرتفعة نسبيًا؛ الغذاء الأساسي لا يقل عن ٤٠٠ دولار شهريًا. في المقابل، انتشرت مطاعم وبقالات عربية بأسعار أقل من مدن أخرى، وكان مطعم سعودي يقدّم أطباقًا تقليدية متنوعة.

سياتل - المرحلة الثانية (٢٠١٥)

سياتل - المرحلة الثانية (٢٠١٥)

بعد الانتهاء من مرحلة الماجستير، بدأتُ الاستعداد للتقدّم لاختبار جي آر إي (Graduate Record Examination)، وهو اختبار مطلوب للالتحاق ببرامج الدكتوراه في كثير من الجامعات الأمريكية. التحقتُ بدورة تحضيرية مدتها ثلاثة أشهر في معهد كابلان، وهو المعهد الوحيد آنذاك الذي يقدّم هذا النوع من الدورات مع تأشيرة دراسية من فئة إف-١. كانت هذه الدورات تُطرح فقط في المدن الأمريكية الكبرى، ولم تكن متاحة في كليفلاند، الأمر الذي دفعني لاختيار مدينة سياتل، خصوصًا لقصر مدة الدورة ومعرفتي المسبقة بالمدينة، إضافة إلى علاقتي السابقة بعائلة مارثا ومايكل تاب.

بعد عودتي من كليفلاند إلى الرياض، حصلت على الموافقة الرسمية من جامعة الملك سعود للالتحاق بالدورة، وسافرت من الرياض إلى لوس أنجلوس عبر الخطوط السعودية، ثم إلى سياتل، وكانت قيمة التذكرة قرابة أربعة آلاف ريال. كنت قد رتّبت مسبقًا السكن مع عائلة تُدعى لايتل، وقد استقبلني مايكل ومورين في المطار، وكانت إجراءات الوصول سلسة وميسّرة. في تلك الفترة، وقبلها بقليل، كنتُ منهمكًا في محاولة الحصول على قبول لمرحلة الدكتوراه، حيث خاطبت أكثر من خمسٍ وعشرين جامعة في الولايات المتحدة. اتضح لي أن القبول في الدكتوراه أصعب بكثير من الماجستير، لا من حيث المنافسة فقط، بل من حيث متطلبات اللغة؛ إذ كانت معظم الجامعات تشترط درجة ست درجات ونصف في اختبار آيلتس أو ثمانين درجة في اختبار توفل. أفضل درجة حصلتُ عليها في الآيلتس كانت خمس درجات ونصف، رغم دخولي الاختبار ثلاث عشرة مرة، وهو ما شكّل عائقًا حقيقيًا. غير أن من توفيق الله أن جامعة كليفلاند الحكومية كانت تقبل بشهادة معهد إي إل إس، وهو ما سهّل عليّ المسار في تلك المرحلة.

كان منزل عائلة لايتل قريبًا نسبيًا من منزل مارثا، لكنه يتميز بسهولة الوصول إلى وسط المدينة حيث يقع معهد كابلان، كما أنه محاط بالمطاعم والخدمات. وبعد أكثر من عامين على مغادرتي سياتل، لاحظت خلال زيارة لاحقة الانتشار الكثيف لمحال بيع الماريجوانا بعد تقنينها رسميًا في نهاية عام ٢٠١٣، وكان اثنان من هذه المحال قريبين من منزل لايتل. المنزل نفسه كان متواضعًا مقارنة بمنزل مارثا، وقد أوضحوا لي ذلك مسبقًا. اتفقنا على مبلغ ٣٥٠ دولارًا شهريًا يشمل السكن والإعاشة، وكان هدفهم المساندة أكثر من الجانب المادي.

في هذه المرحلة كان لدي وقت أطول مقارنة بزيارتي الأولى لسياتل. في الزيارة الأولى كان جدولي اليومي شديد الازدحام؛ إذ كنت أستيقظ في الخامسة والنصف صباحًا، أُعد طعامي البسيط، ثم أستقل الحافلة في السادسة للوصول إلى المعهد عند السابعة، وأقضي اليوم الدراسي حتى الرابعة عصرًا، ثم أتوجه إلى حي(ليك سيتي) حيث النادي الرياضي، وأعود مساءً إلى السكن. لم آخذ أي إجازة دراسية طوال فترة دراستي في معهد إي إل إس، حتى يوم السبت كان غالبًا مخصصًا لاختبارات الآيلتس أو لقاءات خاصة مع مدرس لغة إنجليزية كان يعمل مديرًا لمدرسة، وساعدني كثيرًا في تحسين مهاراتي اللغوية، وقد تولّت الملحقية الثقافية سداد تكاليف إضافية بلغت نحو أربعة آلاف دولار.

أما في دورة (جي آر إي)، فكان لدي هامش أوسع من الوقت للقراءة والنشاط الذهني. كنت أقضي الصباح في الحديث مع مورين، وهي ربة منزل محبة للحوار، خاصة في القضايا الاجتماعية والسياسية. في منتصف النهار كنت أتوجه إلى معهد كابلان لتسجيل الحضور؛ إذ كان مطلوبًا منا الحضور لما لا يقل عن إحدى وعشرين ساعة أسبوعيًا. طبيعة المقرر كانت غريبة نسبيًا؛ فلم تكن هناك سوى حصتين أسبوعيًا، يومي الثلاثاء والخميس، من الخامسة إلى الثامنة مساءً، إحداهما للتحضير اللغوي والأخرى للرياضيات. في الواقع، لم تكن الدورة ذات فائدة أكاديمية كبيرة، وكان الهدف الأساسي منها إتاحة الوقت للطلاب للحصول على قبول جامعي، إضافة إلى توفير الغطاء النظامي للإقامة داخل الولايات المتحدة. كان معظم طلاب الدورة سعوديين، باستثناء طالب يمني مقيم في السعودية وطالبة

آسيوية، وكانت غالبية المقررات إلكترونية وغير ملزمة بالحضور الفعلي.
استثمرت هذا الوقت بشكل أساسي في مراسلة الجامعات ومحاولة استكمال متطلبات القبول في الدكتوراه. ومن أبرز التحديات التي واجهتني آنذاك خطابات التوصية الإلكترونية؛ إذ كانت كل جامعة تطلب نموذجًا خاصًا يُرسل مباشرة إلى الموصي عبر البريد الإلكتروني، وهو ما وضعني في موقف حرج، خاصة أن بعض أساتذتي السابقين أبلغوني بعدم قدرتهم على كتابة عدد أكبر من التوصيات. في هذه المرحلة أُتيحت لي مساحة أكبر للتجول المحدود داخل المدينة، لكن نشاطي كان أقل مقارنة بعام ٢٠١٣ بسبب الانشغال الذهني المستمر بقضية القبول الأكاديمي. كنت أزور المكتبة العامة بشكل شبه يومي، وكان برنامجي اليومي يبدأ بالاستيقاظ في التاسعة صباحًا، ثم الإفطار والحديث مع مورين حتى الظهر، بعدها أستقل الحافلة إلى وسط سياتل لتسجيل الحضور في المعهد، وأبقى هناك حتى السادسة مساءً، باستثناء يومي الثلاثاء والخميس بسبب حصص جي آر إي. بعد ذلك أتوجه إلى المكتبة حتى الثامنة مساءً، ثم إلى مركز(غولدن جيم) الرياضي في الشارع الرابع، وأعود إلى المنزل قرابة العاشرة ليلًا، حيث أجد العشاء مُعدًا في الثلاجة.

كانت الأنشطة الاجتماعية مع عائلة لايتل محدودة لكنها لطيفة؛ ففي كل يوم سبت تجتمع الأسرة الموسّعة في منزلهم، ما أتاح لي التعرف على نمط الحياة العائلية الأمريكية عن قرب. كما حضرنا مباراة كرة قدم لمرحلة الثانوية لتشجيع أحد أقاربهم، وقد لفت انتباهي المستوى العالي لتجهيزات المدرسة، من ملعب ومدرجات وموسيقى وتنظيم، رغم أن سعر الدخول كان رمزيًا لا يتجاوز خمسة دولارات. كما التحقت بعدد من الدورات التدريبية في القيادة مع شركة «سكيل باث»، وهو ما أتاح لي الاحتكاك بأشخاص من قطاعات مهنية متنوعة.غادرتُ سياتل في مطلع عام ٢٠١٦ متجهًا إلى الرياض. وقبل المغادرة بيومين فقط، أجريت مقابلة في جامعة سياتل لاختيار طلاب دفعة الدكتوراه الجديدة. أوصلني مايكل وموررين إلى المطار، وعدت عبر الخطوط الإماراتية، وكانت معي حقيبتين واحدة كلها كتب حتى موظفة الخطوط استغرب وقامت بالضحك فأبلغتها انني محب للكتب والثقافة.

سياتل - المرحلة الثالثة (٢٠١٦)

سياتل - المرحلة الثالثة (٢٠١٦)

بعد ستة أشهر كاملة قضيتها في الرياض، عدتُ إلى سياتل عام ٢٠١٦ عقب قبولي في جامعة سياتل للالتحاق ببرنامج الدكتوراه. منذ اللحظة الأولى، بدا لي أن البرنامج الأكاديمي في هذه الجامعة مختلف عن النمط التقليدي الذي عرفته سابقًا؛ إذ لا تقوم الدراسة على إعداد رسالة دكتوراه فردية لكل طالب، بل يعمل مجموعة من الطلاب على إعداد أطروحة واحدة مشتركة، وهو أسلوب غير مألوف في برامج الدكتوراه. كما أن الجامعة تعمل بنظام «الربع الدراسي»، أي أربعة فصول دراسية في السنة، وهو نظام مكثف بطبيعته ويحتاج إلى قدرة عالية على التحمل والتنظيم.

لم تطل إقامتي في جامعة سياتل، وذلك بسبب إشكالات تنظيمية تتعلق بتعارض نظام الدراسة مع متطلبات الملحقية الثقافية. ففي اليوم الأول لوصولي إلى المدينة، تواصلت مع المشرفة الأكاديمية للاستفسار عن موقف الملحقية من تسجيل عدد ساعات أقل من الضمان المالي. جاء الرد حاسمًا برفض أي دراسة تقل عن اثنتي عشرة ساعة في الربع الدراسي الواحد، وهو عدد كبير جدًا في مرحلة الدكتوراه، بل إن الجامعة نفسها لم تكن تطرح عددًا كافيًا من المقررات لتحقيق هذا الشرط. في ضوء ذلك، نصحتني المشرفة الأكاديمية، الدكتورة نورما، بالاستمرار مؤقتًا في الدراسة إلى حين الحصول على قبول من جامعة أخرى تتوافق مع متطلبات البعثة. ومن توفيق الله أنني كنت قد حصلت سابقًا على قبول من جامعة ولاية إنديانا، إلا أنني لم أُعطه اهتمامًا في حينه بسبب اعتماد جامعة الملك سعود قبول جامعة سياتل، إضافة إلى تأخر صدور قبول إنديانا في ذلك الوقت.

وصلتُ إلى سياتل في شهر رمضان عام ٢٠١٦، وتعمدت السكن في فندق لمدة ستة أيام عند الوصول، حتى أرتب شؤوني الأكاديمية والإدارية مع الجامعة والملحقية. بعد ذلك، اتفقت مع السيدة مارثا (هي نفس العائلة التي سكنت معها وقت

مرحلة اللغة) على السكن لديها لمدة لا تتجاوز ثلاثة أشهر، إذ كنت مدركًا منذ البداية أن الإقامة في سياتل ستكون مؤقتة بسبب الإشكال الأكاديمي القائم. التحقتُ بالفصل الصيفي في جامعة سياتل، ودرست لمدة أسبوعين مكثفين، من الساعة الثامنة صباحًا حتى الخامسة مساءً، ضمن مجموعة صغيرة ضمّت تسعة طلاب، من بينهم طالب سعودي من جدة وطالب آخر من إثيوبيا. كان البرنامج متعدد المسارات، ويتسم بكثافة عالية، ما جعل التجربة مرهقة ذهنيًا، لكنها في الوقت نفسه ثرية من حيث الاحتكاك الأكاديمي وتبادل الخبرات.

خلال فترة بقائي في الرياض التي سبقت العودة إلى الولايات المتحدة، حرصت على ألا أنقطع عن اللغة الإنجليزية. كنت أستخدم منصة «فيربلينغ» للتحدث مع مدرس أمريكي مرة واحدة أسبوعيًا على الأقل، كما التحقت بمقرر في مناهج البحث من جامعة التعليم في ولاية إنديانا عن بُعد. إلى جانب ذلك، واظبت على القراءة والاستماع إلى الكتب المسموعة، في محاولة للحفاظ على الجاهزية الأكاديمية واللغوية قبل العودة للدراسة الحضورية.

نظرًا لقصر مدة الإقامة في سياتل وانشغالي بالمقرر المكثف، كان النشاط الاجتماعي محدودًا جدًا. اقتصر على بعض اللقاءات البسيطة مع زملاء الدراسة، منهم لوري وخوليت، إضافة إلى مناسبة جماعية صغيرة. كما جرت لقاءات ودية مع مايكل تاب وزوجته ميجن وابنتهما فيانا، وزيارة قصيرة للاطمئنان على طفل إحدى العائلات الصديقة. خلال تلك الفترة، استضافت مارثا عائلة قادمة من ولاية إنديانا انتقلت إلى سياتل لفترة مؤقتة، كما شهدت توديع عائلة من تايوان، كان رب الأسرة أستاذًا جامعيًا قدم إلى جامعة واشنطن من أجل التعاون الأكاديمي. وفي اليوم الأخير لي في سياتل، قبل المغادرة إلى إنديانا، شاركت في مناسبة عائلية احتفالًا بتخرج الابن الأكبر لمايكل والتحاقه بالخدمة العسكرية بوصفه طيارًا.

تير هوت مدينة النهر والوادي

تير هوت مدينة النهر والوادي

بـدأت مرحلـة الدكتـوراه في مسـار لم يكـن مخططًـا لـه بدقـة بقـدر مـا كان نتيجـة تراكـم رغبـة طويلـة في الاسـتقرار الأكاديمـي بعـد سـنوات مـن التنقـل بـين المـدن والبرامـج. ففـي يونيـو ٢٠١٦ التحقـت ببرنامـج الدكتـوراه في جامعـة سـياتل وبـدأت الدراسـة فعليًـا مدفوعًـا بحـماس كبـير، ورغبـة صادقـة في إغـلاق فصـل طويـل مـن الترحـال الأكاديمـي. لم يكـن الاسـتعداد حينهـا مثاليًـا، لكـن الإحسـاس بـأن الوقـت قـد حـان للدخـول في مرحلـة أكـثر نضجًـا جعلنـي أندفـع إلى التجربـة بثقـة، وربمـا بـشيء مـن التعجـل.

غـير أن هـذا الاسـتقرار لم يـدم طويـلًا. فقـد اصطدمـت الدراسـة باشـتراطات الملحقيـة الثقافيـة المتعلقـة بطبيعـة الأطروحـة ومسـار الإشراف الأكاديمـي، وهـو مـا اسـتدعى تغيـير الجامعـة في وقـت مبكـر. جـاء القـرار سريعًـا ومفاجئًـا، لكنـه تـم بسلاسـة لافتـة ولله الحمـد ، ربمـا لأننـي كنـت قـد وصلـت إلى مرحلـة مـن الخـبرة جعلتنـي أتعامـل مـع التحـولات الكـبرى بقـدر أقـل مـن الارتبـاك. في ذلـك الوقـت، كنـت أملـك قبـولات مـن عـدة جامعـات أمريكيـة، واخـترت عـن قناعـة جامعـة انديانـا الحكوميـة، مفضّـلًا إياهـا عـلى الجامعـات الخاصـة، إيمانًـا بقـوة الجامعـات الحكوميـة في مجـالي، واسـتقرارها البحثـي، وعمقهـا الأكاديمـي، وارتباطهـا الوثيـق بالبحـث العلمـي طويـل النفـس.

ويُحسـب في هـذا السـياق التجـاوب السريـع مـن جامعـة الملـك سـعود، عـلى الرغـم مـن أن الإجـراءات تمـت خـلال الإجـازة الصيفيـة، وهـي فـترة تتباطـأ فيهـا المعامـلات عـادة. كنـت قـد أنهيـت سـت سـاعات دراسـية في الربـع الأول بجامعـة سـياتل، إذ إن نظـام الدراسـة هنـاك ربعـي، وتقدمـت بطلـب التغيـير في يوليـو. تواصلـت مبـاشرة مـع جامعـة إنديانـا، فجـاء القبـول سريعًـا، وتـلاه الضـمان المـالي دون تأخـير يُذكـر، وكأن الطريـق كان مهيـأ للانتقـال، رغـم قسـوته النفسـية في حينـه.

في نهاية يوليو ٢٠١٦ ودّعت سياتل للمرة الثالثة والأخيرة. كانت المرة الأولى عند دراسة اللغة، والثانية بعد إنهاء الماجستير والاستعداد لاختبار (GRE)، أما الثالثة فكانت محاولة أخيرة للاستقرار في الدكتوراه لم يُكتب لها الاستمرار. لم يكن الوداع سهلًا؛ فقد ارتبطت سياتل في ذاكرتي بمراحل متعددة من النضج العلمي والشخصي، وبدا لي حينها أن مغادرتها نوع من الخسارة المؤجلة، قبل أن أكتشف لاحقًا أن هذا الانتقال كان يحمل في طياته خيرًا لم أكن أراه بوضوح.
في نهاية يوليو، حجزت رحلة جوية من مطار سياتل تاكوما إلى إنديانابوليس، أقرب مدينة كبرى إلى مدينة الدراسة الجديدة. استغرقت الرحلة قرابة سبع ساعات، مع توقف قصير في شيكاغو. وصلت إلى إنديانا بوليس، وهي مدينة سبق أن عرفتها من زيارات سابقة بحكم قربها الجغرافي من أوهايو، حيث يقيم أحد الأقارب. مكثت يومين في أحد الفنادق، ثم استقليت سيارة أجرة باتجاه تير هوت.

أقمت في فندق ثلاث نجوم قريب من الجامعة لمدة أسبوعين، وكانت أسعاره معقولة، نظرًا لصغر المدينة وهدوئها. وتُعد تير هوت مدينة صغيرة نسبيًا، يعود اسمها إلى أصل فرنسي يعني(الأرض المرتفعة)، في إشارة إلى موقعها الجغرافي على ضفاف نهر واباش. في تلك الأيام الأولى، كنت أشعر بإحباط داخلي؛ فقد كنت أتمنى البقاء في سياتل، لكن مع مرور الوقت بدأ يتسلل إليّ إحساس خفي بأن هذا الانتقال ربما كان ضرورة لا خيارًا، وأن فيه خيرة لم تتكشف إلا تدريجيًا.
مع الأسبوع الأول من أغسطس، بدأت الورش التعريفية في جامعة إنديانا الحكومية. استمر البرنامج قرابة أسبوع كامل، وكان منظمًا ومكثفًا على نحو لافت. تعرّفنا خلاله على أنظمة الدراسة والبحث، وجُلنا في المكتبات الجامعية، وتعرّفنا على الخدمات الطلابية والمرافق، والتقينا بعدد من أعضاء هيئة التدريس، واطلعنا على المطاعم الجامعية، بل وحتى عُقد لقاء تعريفي مع شرطة الجامعة لشرح حقوق الطلاب وواجباتهم. وفي نهاية الأسبوع، صدرت البطاقة الجامعية، وكأنها إعلان رمزي ببدء مرحلة جديدة. كان لهذا الأسبوع أثر نفسي عميق؛ إذ أعاد بناء الإحساس بالانتماء بعد انتقال مفاجئ، ومهّد لدخول جاد في عالم الدكتوراه.

بدأت مرحلة الدكتوراه وهي تحمل في طياتها قدرًا عاليًا من التحدي منذ أيامها الأولى، لا بسبب الانتقال الجغرافي المفاجئ فحسب، بل لأنني دخلت هذه المرحلة بوعي مختلف عمّا سبقها. كنت أدرك أن الدكتوراه ليست استمرارًا طبيعيًا للماجستير، بل قطيعة معرفية معه، واختبارًا حقيقيًا لقدرة الباحث على إعادة تشكيل طريقته في التفكير، وتحمل أعباء معرفية وقانونية وتنظيمية معقدة. ومع انخراطي الكامل في البرنامج، سرعان ما اتضح أن أصعب المقررات وأكثرها إرهاقًا لم تكن مقررات القيادة أو العلاقات الإنسانية، رغم عمقها النظري، بل كانت المقررات المرتبطة بالتمويل والقانون. هذه المقررات شكّلت منعطفًا حادًا في التجربة الأكاديمية، وأخرجتني من منطقة الألفة التي اعتدت عليها في التفكير الإداري العام إلى مساحات أكثر صرامة وتعقيدًا.

في مقررات التمويل التعليمي، لم يكن الحديث عن ميزانيات وأرقام مجردة، بل عن فلسفة توزيع الموارد، وعن العلاقة الشائكة بين المال والقرار، وعن العدالة في تمويل التعليم، وعن الفجوة بين ما هو مخطط له نظريًا وما هو ممكن تنفيذه واقعيًا. كانت هذه المقررات تتطلب قراءة دقيقة لتقارير مالية، وتحليل سياسات تمويل، وفهم آليات اتخاذ القرار المالي داخل المؤسسات التعليمية، وربط ذلك كله بالسياق السياسي والحوكمي. أدركت خلالها أن كثيرًا من الشعارات التربوية الجميلة تسقط أول ما تسقط أمام سؤال التمويل: من يدفع؟ ولماذا؟ وعلى حساب من؟

أما مقررات القانون التربوي، فقد كانت بلا مبالغة من أكثر المقررات إنهاكًا ذهنيًا. انتقلت فيها من منطق إداري مرن يسمح بالاجتهاد والتقدير إلى منطق قانوني صارم لا يعترف بالنوايا الحسنة ولا بالاجتهاد الشخصي. نصوص قانونية دقيقة، وسوابق قضائية، وقضايا حقيقية لمؤسسات تعليمية خُسرت فيها ملايين الدولارات أو أُغلقت بسبب خطأ إداري بسيط لم يُحسب حسابه قانونيًا. كانت القراءة في هذا المجال بطيئة ومتأنية، لأن أي سوء فهم قد يغيّر تفسير القضية

بالكامـل.

ومـع تراكـم هـذه المقـررات، بـدأت أشـعر بثقـل نفـسي حقيقـي. لم تعـد الدراسـة مجرد حضـور محـاضرات وكتابـة أوراق بحثيـة، بـل أصبحـت مواجهـة يوميـة مـع أسـئلة كبـيرة: أيـن يقـف القائـد حـين يتعـارض القـرار الأخلاقـي مـع القيـد القانـوني؟ وكيـف يمكـن للقيـادة أن تكـون ملهمـة وهـي محـاصرة بالأنظمـة واللوائـح؟ ومتـى يصبـح القـرار الإداري مخاطـرة قانونيـة؟ هـذه الأسـئلة لم تكـن نظريـة، بـل كانـت حـاضرة في كل حالـة دراسـية نناقشـها. ورغـم هـذا الثقـل، أو ربمـا بسـببه، بـدأت تتشـكل لـديّ قناعـة عميقـة بـأن هـذه المقـررات الصعبـة هـي قلـب الدكتـوراه الحقيقـي. فهـي التي أعـادت ترتيـب فهمـي للقيـادة، فلـم تعـد في ذهنـي مهـارة خطابيـة أو قـدرة عـلى التأثـير الإنسـاني فقـط، بـل ممارسـة معقـدة محكومـة بالتمويـل، ومقيـدة بالقانـون، ومربوطـة بالحوكمـة والمسـاءلة. أدركـت أن القائـد الـذي يجهـل التمويـل قـد يحلـم أكـثر مـما ينبغـي، وأن القائـد الـذي يجهـل القانـون قـد يدمّـر مؤسسـته وهـو يظـن أنه يصلحهـا. ومـع مـرور الوقـت، تحـوّل الشـعور بالإرهـاق إلى نـوع مـن النضـج الهـادئ. بـدأت أتعامـل مـع هـذه المقـررات لا بوصفهـا عبئًـا مؤقتًـا، بـل بوصفهـا أدوات وعـي طويلـة المـدى. صرت أقـرأ القضايـا القانونيـة بعـين مختلفـة، وأفهـم النقاشـات حـول تمويـل التعليـم بعمـق أكـبر، وأربـط بـين السياسـات العامـة والقـرارات اليوميـة داخـل المؤسسـات التعليميـة. هنـا تحديـدًا شـعرت أن الدكتـوراه لم تعـد مجـرد مرحلة دراسـية أضيفهـا إلى السـيرة الذاتيـة، بـل أصبحـت إعـادة تشـكيل شـاملة لطريقـة التفكـير. وأدركـت أن أصعـب المقـررات ليسـت تلـك التـي ننجـو منهـا بأقـل الخسـائر، بـل تلـك التـي تغيّرنـا مـن الداخـل، وتـترك أثرهـا العميـق في نظرتنـا لـلإدارة، والقيـادة، وصناعـة القـرار. وفي حالتـي، كانـت مقـررات التمويـل والقانـون هـي الامتحـان الأصعـب، لكنهـا في الوقـت ذاتـه كانـت الامتحـان الأكـثر صدقًـا، والأكـثر أثـرًا، والأطـول بقـاءً في الذاكـرة الأكاديميـة والمهنيـة.

مـع الدخـول في مرحلـة الدكتـوراه تغـيّر إيقـاع التجربـة التعليميـة والحياتيـة بشـكل واضـح. لم تعـد السـنوات الدراسـية مشـحونة بالقلـق كـما في مرحلـة اللغـة، ولا متقلبـة

كما في بدايات الماجستير، بل اتسمت بهدوءٍ عام، ونوع من النضج الأكاديمي والنفسي الذي لا يتشكل فجأة، وإنما يأتي نتيجة تراكم طويل من التجربة، والتنقل، والاحتكاك بالجامعات والمجتمعات المختلفة. شعرت في هذه المرحلة أنني لم أعد "أتعلم كيف أعيش في الجامعة"، بل أصبحت الجامعة جزءًا طبيعيًا من حياتي اليومية. كان حضوري داخل الحرم الجامعي أوسع وأكثر وعيًا من أي مرحلة سابقة. لم أعد أكتفي بحضور المحاضرات والالتزام بمتطلبات المقررات، بل بدأت أتعامل مع الجامعة بوصفها فضاءً ثقافيًا وإنسانيًا متكاملًا. حضرت جلسات نقاشية، وفعاليات ثقافية، وعروضًا موسيقية ومسرحية تُنظم بشكل منتظم، حتى في الفترات التي تخلو من ضغط الدراسة. بعض هذه العروض كانت لطلاب أمريكيين، وبعضها الآخر لطلاب دوليين، ومن بينها عروض قدمتها وفود طلابية من دول مختلفة، الأمر الذي جعلني أرى الجامعة وهي تؤدي دورها الحقيقي بوصفها مساحة مفتوحة للتعدد والتفاعل.

ومع مرور الوقت، ترسّخت لدي قناعة بأن أحد أهم ما يميز الجامعات الأمريكية هو التنوع الثقافي الواسع. ففي قاعة واحدة، قد تجلس إلى جوارك طالب من خلفية ريفية أمريكية، وآخر من مدينة كبرى، وطالبة من أوروبا الشرقية، وزميل يعمل منذ سنوات في إدارة تعليمية، وآخر قادم مباشرة من الميدان المدرسي. هذا التنوع لم يكن شكليًا أو احتفاليًا، بل كان حاضرًا بقوة في النقاشات الصفية، وفي زوايا النظر المختلفة للقضايا التربوية والقيادية. كل نقاش كان يحمل معه تجارب متعددة، وسياقات اجتماعية وثقافية متباينة، وهو ما كان يفرض عليك كباحث أن تعيد التفكير في كثير من المسلّمات، وأن تنظر إلى القضايا من أكثر من زاوية، لا من منظور واحد ضيق.في هذه المرحلة، كان معظم زملائي في برنامج الدكتوراه يشغلون مناصب قيادية في إدارات التعليم، أو يعملون كنُواب لمديري مناطق تعليمية، أو يمتلكون خبرة طويلة في الإدارة المدرسية. هذا العمق المهني انعكس على طبيعة الحوار داخل القاعة؛ فالنقاش لم يكن نظريًا خالصًا، بل ممتزجًا بالتجربة الواقعية، وبالأسئلة العملية التي تواجه القيادات التعليمية يوميًا. ومع هذا التنوع المهني والثقافي، شعرت أن برنامج الدكتوراه لم يكن مجرد مسار أكاديمي، بل مجتمع تعلم مصغر يتبادل فيه الأفراد الخبرات بقدر ما يتبادلون

المعرفـة.

إلى جانـب هـذا الانغـماس الثقـافي والفكـري، كنـت حريصًـا عـلى الحضـور المنتظـم للفعاليـات الرياضيـة الجامعيـة. مباريـات كـرة القـدم وكـرة السـلة كانـت بالنسـبة لي مسـاحة اسـتراحة نفسـية، لكنهـا في الوقـت ذاتـه كانـت جـزءًا مـن الاندمـاج في الحيـاة الجامعيـة. في المدرجـات، يختفـي الفـارق بـين طالـب دكتـوراه وأسـتاذ، وبـين أمريـكي ودولي، ويحـل محلـه شـعور جماعـي بالانتـماء. هـذه اللحظـات البسـيطة كانـت تمنحنـي طاقـة متجـددة، وتُبقـي العلاقـة مـع الجامعـة علاقـة حيّـة لا تقتـصر عـلى القاعـات والمكتبـات.

عـلى الصعيـد الأكاديمـي، اتسـمت البيئـة بقـدر كبـير مـن المرونـة والاحـترام الإنسـاني. أعضـاء هيئـة التدريـس كانـوا يتعاملـون مـع طالـب الدكتـوراه بوصفـه باحثًـا في طـور الاكتـمال، لا مجـرد طالـب مطالـب بالتنفيـذ. كان الحـوار مفتوحًـا، والنقـد حـاضرًا دون قسـوة، والتشـجيع واضحًـا حـين يظهـر الجهـد والالتـزام. سـارت الدراسـة بسلاسـة، وحققـت بفضـل اللـه نتائـج مرتفعـة في معظـم المقـررات، وكان لهـذا التقديـر أثـر نفـسي إيجـابي عـزّز الثقـة، ودفـع إلى مزيـد مـن التعمـق والبحـث.

لم تقتـصر التجربـة عـلى القاعـات الدراسـية؛ فقـد قمـت بزيـارات ميدانيـة لعـدد مـن المـدارس، وحـضرت مؤتمـرات تربويـة عُقـدت داخـل الولايـة، وهـو مـا أتـاح لي ربـط مـا أدرسـه نظريًـا بمـا يُمـارس فعليًـا في الميـدان. وفي هـذه المرحلـة أيضًـا، بـدأت العمـل عـلى تأليـف كتـاب عـن التعليـم في الولايـات المتحـدة، مسـتفيدًا مـن التراكـم المعـرفي، والملاحظـة الميدانيـة، والحـوار المسـتمر مـع القيـادات التعليميـة والأسـاتذة والزمـلاء. ومـع الانتهـاء مـن المقـررات، انتقلـت إلى مرحلـة الاختبـار الشـامل ثـم مرحلـة الرسـالة العلميـة. كانـت هـذه المرحلـة أقـل توتـرًا مـما كنـت أتوقـع، ربمـا لأن النضـج الأكاديمـي كان قـد تشـكّل بالفعـل. اعتمـدت الرسـالة عـلى المنهجيـات النوعيـة، وسـارت إجراءاتهـا مـن حيـث الأخلاقيـات والتصاريـح بيـسر نسـبي، مـما أتـاح التركيـز عـلى جوهـر البحث

بدل الانشغال بالإجراءات. كانت النقاشات البحثية عميقة، والحوار النقدي حاضرًا، ولم أجد فرقًا جوهريًا من حيث الرصانة والمنهج بين ما يُمارس هنا وما هو قائم في برامج الدراسات العليا في المملكة، وهو ما عزّز لدي شعور الاطمئنان تجاه مستوى البحث العلمي في جامعاتنا.

كانت رسالة الدكتوراه نوعية المنهج، وقد صممتها عن قناعة راسخة بأن دراسة تجربة الطلاب السعوديين في الخارج لا ينبغي أن تُختزل في صوت الطالب وحده. فغالبًا ما تُكتب هذه التجارب من الداخل، محمّلة بالمشاعر والانطباعات، بينما يغيب صوت الأستاذ الجامعي الذي يدرّس، ويقيّم، ويلاحظ التحولات الأكاديمية والسلوكية والثقافية عن قرب. من هنا، انطلقت الرسالة من سؤال جوهري: كيف يرى الأستاذ الأمريكي الطالب السعودي داخل القاعة الدراسية؟ وما الذي يلاحظه من نقاط قوة وتحديات؟ وكيف تتشكل العلاقة التعليمية في سياق ثقافي مختلف؟

لهذا السبب، لم أكتفِ ببيئة جامعية واحدة، بل حرصت على توسيع المجال الجغرافي للدراسة. سافرت إلى جامعات مختلفة في ولايتَي أوهايو وإنديانا، وأجريت مقابلات معمّقة مع أعضاء هيئة تدريس أمريكيين من تخصصات متعددة: العلوم، والإدارة، واللغويات، وكليات المجتمع. كان هذا التنوع مقصودًا؛ إذ أردت أن تتجاوز الدراسة الانطباع الأحادي، وأن تعكس اختلاف البيئات الأكاديمية بين جامعة بحثية كبيرة وكلية مجتمع، وبين قاعة يهيمن عليها البحث النظري وأخرى تركز على التطبيق المباشر.

أثناء هذه المقابلات، اكتشفت أن صورة الطالب السعودي لدى كثير من الأساتذة أكثر تعقيدًا مما يُتداول إعلاميًا أو حتى بين الطلاب أنفسهم. بعضهم كان يرى في الطالب السعودي جديّة عالية والتزامًا واضحًا، وبعضهم كان يشير إلى تحديات لغوية أو فجوات في مهارات الكتابة النقدية، بينما ركز آخرون على البعد الثقافي،

وطريقة التفاعل داخل القاعة، وحدود المشاركة والنقاش. هذا التعدد في الرؤى لم يربكني، بل منحني صورة أكثر توازنًا وعمقًا، وساعدني على الخروج من منطق الدفاع أو التبرير إلى منطق التحليل والفهم.

ومع اكتمال الرسالة ومناقشتها، أدركت أن ما أنجزته لم يكن مجرد متطلب أكاديمي للحصول على الدرجة، بل بذرة لمشروع علمي أكبر. فأسئلة الرسالة لم تُغلق بنقطة في فصل الخاتمة، بل بقيت مفتوحة، تدفعني إلى التوسع في القراءة والبحث والكتابة. ومن هنا، بدأ مسار جديد من التأليف والنشر، تناولت فيه قضايا أوسع تتصل بالطلاب الدوليين عمومًا، والطلاب السعوديين على وجه الخصوص: التحديات الأكاديمية واللغوية، الأبعاد الاجتماعية والثقافية للتجربة الدراسية، العلاقة بين الطالب الدولي والجامعة المضيفة، بل وحتى الأثر الاقتصادي للطلاب الدوليين في الدول المستقبلة، والتحولات في سياسات الابتعاث والتعليم العابر للحدود.

مع مرور الوقت، شعرت أنني انتقلت بهدوء ودون قفزات من موقع الطالب الذي يسرد تجربته، إلى موقع الباحث الذي يفكك الظاهرة، ويضعها في سياقها المؤسسي والتاريخي والاقتصادي. لم تعد تجربة الابتعاث مجرد ذكريات شخصية أو مشاهدات متناثرة، بل تحولت إلى حقل بحثي متكامل، له أدواته وأسئلته ومنهجيته.

وهكذا، لم يكن التخرج في صيف ٢٠١٩م نهاية الرحلة، بل نقطة تحوّل حقيقية. ففي تلك اللحظة، أدركت أن سنوات الدراسة والتنقل والمقابلات والملاحظات لم تكن سوى مرحلة إعداد طويلة لما هو آتٍ. تحولت التجربة الفردية إلى إسهام علمي، وتحول التعلم إلى إنتاج، وأصبحت رسالة الدكتوراه في معناها الأعمق بداية الطريق لا نهايته. ومع نهاية هذه المرحلة، أدركت أن الدكتوراه لم تكن مجرد درجة علمية أُضيفت إلى السيرة الذاتية، بل كانت خلاصة رحلة طويلة من

التعلـم والتكيـف والنضـج. كانـت مرحلـة هـدوء بعـد سـنوات مـن الترحـال، واتسـاع في الأفـق بعـد تجـارب متعـددة، وتحـولًا مـن طالـب يسـعى للفهـم إلى باحـث قـادر عـلى التحليـل والإنتـاج. والأهـم مـن ذلـك كلـه، أنهـا كشـفت لي أن قـوة الجامعـات الأمريكيـة لا تكمـن فقـط في مناهجهـا أو مواردهـا، بـل في قدرتهـا عـلى احتضـان التنـوع الثقـافي والإنسـاني، وتحويـل الاختـلاف إلى قيمـة تعليميـة ومعرفيـة حقيقيـة.

